داون

Down

داون

تأليف: أحمد إبراهيم عبدالهادي

غلاف: رانيا السفوت

تدقيق لغوي: مختار مراد

تنسيق: مريم محمد سيد

الطبعة: الأولى

المقاس: 14 x 20

رقم الإيداع: 25765/2023

الترقيم الدولي: 978-977-8979-40-4

المدير العام

د. محمد إبراهيم

الناشر: عين حورس للطباعة والنشر والترجمة

عين حورس
للطباعة والنشر والترجمة

المقر: 3 شارع م/ شوقي عبد المنعم- عمارة 8 هـ

تقسيم اللاسلكي – خلف شارع النصر - المعادي

رقم الهاتف: 01013518155

واتس: 01153165632

البريد الإلكتروني: ainhouras22@gmail.com

كل الحقوق محفوظة للناشر وغير مصرح بتداوله بدون إذن خطي ©

رواية

داون

Down

أحمد إبراهيم عبد الهادي

(1)

ألقى بجسده المنهك على الفراش الصلب، بالكاد يستطيع أن يلتقط أنفاسه؛ بسبب آلام الصدر التي أصابته جراء الحياة لسنوات في هذه الغرفة الضيقة ذات الجدران التي نخرتها الرطوبة، بجوار النافذة الوحيدة التي تطل على المسقط الخلفي للبناية، تلك النافذة التي لا يدخل منها سوى هواء فاسدٍ محملٍ برائحة كريهة قادمة من أنابيب الصرف الصحي ورائحة القمامة الممتزجة بروائح طهي الطعام من سكان البناية، وقد أجهز على ما تبقى من رئتيه بدخان الشيشة التي لا تفارق مجلسه؛ مما جعله كثير السعال.

جسده النحيل أصبح لا يقوى على كل هذا المجهود اليومي، عاودته آلام الظهر من جديد، اليوم الخميس هو أصعب أيام الأسبوع، فبالإضافة إلى عمله اليومي الدائم ما بين غسيل السيارات لسكان البناية، وإحضار طلباتهم التي لا تنتهي، يقوم بجمع القمامة من كل شقة، وحملها إلى صندوق القمامة الكبير على ناصية الشارع، ثم يقوم بتنظيف وغسيل درجات السلم، أصيب بآلام الظهر منذ عدة سنوات، لا يزال يعاني من آثارها حتى الآن.

زوجته تجلس على الحصيرة البلاستيكية المهترئة بجوار الفراش، تحاول جاهدة إرضاع طفلتهما التي لم تتم شهرها السادس بعد، تضع حلمتها في فم الطفلة، تعتصر ثديها بقوة، ثم تتنهد وتقول دون أن تلتفت له:

- لقد انقطعت دورتي الشهرية ... يبدو أنني حامل.

التفت إليها، نظر لها نظرة طويلة، عيناه خاليتان من أي تعبير، لا يدري أيفرح لحملها من جديد، أم يحزن على مولود يأتي ليشارك ثلاثتهم هذا الفراش الذي بالكاد يسع كلاً منهم وهو نائم على جانبه، لا يستطيع التقلب.

أعاد نظره إلى السقف المتعرج الذي يعكس درجات السلم من الأسفل، فسألته:

- ألن تتناول طعام العشاء؟

خرجت منه الكلمات بصعوبة، وهو يقول:

- ماذا بقي لدينا من طعام؟

أشارت إلى وعاء من الألمونيوم المتصدع بجوار الموقد الغازي:

- بعض البازلاء متبقية من طعام الغداء.

هز رأسه وقال:

- اتركيها للغد.

قالت وهي تنهض:

- الجو حار، ستفسد، من الأفضل تناولها الآن.

وضعت الطفلة بجواره على الفراش، وتوجهت صوب الموقد ذي الشعلة الواحدة، والموضوع على خزانة قصيرة، ضفتاها مكسورتان،

وطلاؤها مطموس، وخشبها متعرج بفعل الرطوبة، هذا هو مطبخهم داخل تلك الغرفة الوحيدة التي تمثل لهم مكانًا للنوم بفراشها المعدني الذي يحوي فوقه مرتبة قطنية مهترئة، أكثر صلابة من معدن الفراش نفسه، وغرفة معيشة يقتصر فرْشها على حصيرة بلاستيكية تقطعت معظم حوافها، وبهت لونها، وغرفة طعام من طبلية وحيدة، فقدت جزءًا من استدارتها، كل هذا في مساحة لا تتعدى ثلاثة أمتار طولاً ومثلهما عرضًا.

جاء (صالح) إلى هذه الغرفة منذ ثمان سنوات، خرج من قريته الصغيرة التابعة لمركز "إطسا" بمدينة "الفيوم" أملاً في حياة مختلفة أكثر استقلالاً.

بعد أن كان يعمل صانعًا للأقفاص الخشبية من جريد النخيل، حيث بدأ كصبي صغير يساعد (عبد التواب) القفاص، يحمل له الأدوات، ويحضر له الجريد والأسلاك المعدنية، وعند بلوغه الثانية عشر من العمر صار هو الصانع الحقيقي، و(عبد التواب) مجرد مشرف عليه بعد أن تقدم العمر بالأخير، وأصبحت يداه ترتعشان، ولا تقويان على حمل المثقاب والطَّرْق بالمطرقة وحفر الثقوب في الجريد وتعشيقها وربطها بالأسلاك.

بعد أن أتم (صالح) عامه التاسع عشر، توفي والده، وضاقت به الحياة في المنزل الصغير وسط ستة من الأخوة وثمانية من الأخوات. خمسة عشر من الأبناء، تنازعوا على ميراث الأب بعد وفاته، عربة كارو بالية يجرها حمار عجوز، يعرج ويتعثر أكثر مما يخطو، تقاتلوا

عليها، وكأنها قصر ملكي يحاول كل منهم أن يجلس فوق عرشه، ويحوز على صولجانه، حتى كاد أحد الأخوة أن يفتك بالآخر، فآثر هو الابتعاد.

كان العام 1982 عندما حمل متاعه، وتوجه إلى "القاهرة"، مدينة الفرص الناضجة التي تنتظر الحصاد، المدينة التي لا تنام، توجه إلى أحد أصدقاء والده الذي ترك "الفيوم" منذ سنوات ليستقر في أحد أحيائها، وكما كان يعمل هذا الصديق بوابًا لأحد المباني السكنية، توسط له عند الحاج (رأفت) مالك هذا العقار الذي يقع بأحد الشوارع المتفرعة من شارع "شبرا"، الحي العريق الذي يقطن أغلبه أرباب الطبقة الوسطى، ليعمل به هو الآخر كبواب، كانت بالنسبة له صفقة رابحة، سكن مجاني وعمل يتقاضى عليه أجرًا، حتى وإن كان السكن عبارة عن غرفة واحدة تقبع تحت درجات السلم، والأجر لا يكفي سوى وجبة واحدة يوميًا خالية من اللحم أو الدجاج، ولكن ماذا كان سيعمل غير ذلك؟ من ذا الذي يوظف شابًا جاهلاً لا يستطيع القراءة أو الكتابة، ولا يعرف أي مهنة سوى صناعة الأقفاص الخشبية من جريد النخيل، المهنة التي بدأت بالفعل في الانقراض بعد أن تحول التجار إلى استخدام أقفاص بلاستيكية تصنع بماكينات عملاقة في مصانع كبيرة.

قضى (صالح) سبع سنوات في هذه الغرفة وحيدًا، رغم أنه يقضي معظم الوقت في خدمة سكان العقار، خمسة طوابق، كل طابق يحوي شقتين، عشر أسر لا تنتهي طلباتهم أبدًا، نهارًا وليلاً، إلا أنه

عندما يستلقي على فراشه في المساء تؤلمه وحدته، عند بلوغه السادسة والعشرين بدأت رغبات الفحولة تؤرق مضجعه، فقرر أن يتزوج، حاول مع كثير من الفتيات، ولكن في كل مرة يتم رفضه، فابنة أحد البوابين في بناية على ناصية شارع "شبرا" رفضت الزواج منه؛ لأنه أمي وهي متعلمة، أخت صبي الميكانيكي في الشارع الخلفي رفضته؛ لأنها لن تستطيع الحياة في هذه الغرفة الضيقة، وابنة بائعة الخضروات في سوق "قشقوش" رفضته؛ لأنها كانت على قدر من الجمال جعلها تتطلع لزوج أكثر منه حظًا ومالاً.

ولكنه أخيرًا وجد ضالته في (إجلال)، ابنة ابن عم والده، والتي وافقت به هي الأخرى هربًا من جحيم زوجة أبيها، والتي كانت تعايرها دائمًا بكبر سنها، وأنها لن تجد من يتزوجها؛ لأنها دميمة، صفقة أخرى رابحة، ستتحرر من منزل أبيها في إحدى قرى "بني سويف" لتتزوج وتعيش في "القاهرة"، رغم كونها تكبره بعام، إلا أنها لم تكن دميمة على الإطلاق، وهو لم يكن يراها كذلك، بل على العكس تمامًا، يوم العرس، عندما قاموا بتزيينها، ووضعوا بعض مساحيق التجميل على وجهها، عندما أشرق وجهها بابتسامة سعادة، وجد أن بها قدرًا من الجمال كان يختفي تحت غبار الأسى الذي كانت زوجة أبيها تسقيها من حميمه كل صباح.

بعد زواجهما أيقن (صالح) أن الله أراد له الخير، حيث مثلت (إجلال) سندًا حقيقيًا له، كانت تساعده في عمله، أوكل لها شراء طلبات السكان من الخضروات واللحوم لقدرتها في معرفة البضائع

الجيدة والطازجة، وقدرتها على مناقشة البائعين ومجادلتهم في الأسعار إن لزم الأمر، قدرات وضعها الله في النساء دون الرجال، وتفرغ هو للمهام التي تتطلب مجهودًا بدنيًا أكبر، كتنظيف درجات البناية والاهتمام بمدخلها، وحمل الأثاث والمتاع للسكان، وغسيل سياراتهم، وقضاء بعض مشاويرهم التي يوكلونه بها.

الأهم من كل ذلك أن (إجلال) لم تتذمر يومًا من هذه الحياة، لم تتذمر من ضيق الغرفة، لم تتذمر من ضيق المعيشة، بل على العكس، كانت دائمًا ما تُشعر (صالح) بأنها سعيدة وراضية.

بعد عام واحد من الزواج رزقوا بابنتهم (هدى)، هذه الطفلة التي تقبع بجواره على الفراش، ولا يدري كيف سيقوم بإطعامها إذا صدقت مقولة زوجته بأنها حامل مما يستوجب إرضاعها عن طريق لبن الأطفال الصناعي.

بدأت الطفلة في البكاء، بينما انهمكت زوجته في تسخين بقايا البازلاء الخالية من اللحم ورغيف من الخبز، حاول مداعبة طفلته حتى تكف عن البكاء عندما سمع صوتًا يناديه من أمام مدخل البناية، عرف الصوت على الفور، فانتفض مسرعًا خارج الغرفة، ليجد أمامه (محمود الغريب)، أحد السكان، رجل في العقد الرابع من العمر، دائم التجهم، لا يكف عن اختلاق المشاكل مع كل من حوله، صوته جهوري، عندما ينادي على (صالح) من شقته بالدور الرابع يسمعه كل من في العقار والعقارات المجاورة، رغم ضوضاء شارع "شبرا" القريب من البناية، لا أحد يعرف ماذا يعمل تحديدًا، ولكنه

يحمل في حزامه سلاحًا ناريًا يصحبه أينما ذهب، ولهذا؛ يتجنبه سكان الحي دائمًا لاعتقادهم بأنه يعمل ضابطًا للشرطة، أو في مركز سلطوي يستدعي حمل سلاح ناري، ورغم كونه كثير التشاحن إلا أن هذه المشاحنات تنتهي سريعًا بمجرد أن يُرى هذا السلاح، ولهذا؛ لم يخرجه أبدًا من جرابه.

- أين كنت يا (صالح)؟ ناديت عليك كثيرًا.

قالها (محمود) بغضب اعتاد عليه (صالح) الذي قال بصوت مرتعش:

- لقد أتيت بمجرد سماعي...

قاطعه (محمود) وهو يشير إلى عدة حقائب بلاستيكية كبيرة وصناديق كرتونية موضوعه في حقيبة سيارته المتوقفة أمام البناية:

- قم بتوصيل هذه الأشياء إلى شقتي.

كعادته لم يرفض (صالح) أو يجادل، حمل كل ما يستطيع حمله، وصعد إلى الدور الرابع حيث شقة (محمود)، آلام الظهر تعاوده بقوة، ولكنه حتى وإن رفض أي طلب لأي من ساكني البناية بأدب، لن يستطيع مع هذا الرجل تحديدًا، هذا لم يحدث ولن يحدث، فكل مهنة تتكون من عدة عاملين ومدير واحد، أما مهنة البواب هي المهنة الوحيدة التي تحوي عدة مدراء وعامل واحد، كل سكان البناية هم مديرو البواب، وعليه أن يطيعهم جميعًا وإلا فقد عمله.

كان يتمنى أن يتواجد بالبناية مصعد كالبنايات الحديثة في الأحياء الراقية، فهو لم يعد يقوى على حمل المتاع والصعود بها على درجات السلم، ولكن هذا هو الحال وعليه تقبله، انتهى من مهمته على مرحلتين من الصعود والهبوط، ثم عاد إلى غرفته حيث كانت (إجلال) قد وضعت صحنًا من الطعام على الطبلية، وأخذت تحاول مرة أخرى إِدْرَارَ اللبن للطفلة التي تعلقت بثدي أمها، وأخذت في الامتصاص.

نظر إليها (صالح)، وقال:

- ألن تأكلي شيئًا؟

فأجابت:

- لا ... لست جائعة.

فقال بحزم:

- أنت ترضعين، وإن كنت حاملاً فعلاً، يجب أن تأكلي شيئًا.

قسم الرغيف الوحيد المتبقي لديهم لنصفين، أعطاها أحدهما، وهمَّ في تناول الآخر، فسألته:

- هل أعطاك شيئًا؟

فهز رأسه بالنفي، وهو يقول:

- أنت تعرفينه بالتأكيد، لا يخرج من جيبه قرشًا.

فقالت بأسى:

- ماذا سنفعل في طعام الغد؟ نحن في آخر أيام الشهر، لم يعد معنا حتى قرش واحد.

تعلق الطعام في حلقه، بلعه بصعوبة، ثم قال:

- سيرزقنا الله.

- سنحتاج لبنًا صناعيًا لـ(هدى).

أومأ برأسه دون أن يجيب، عندما سمعوا صوتًا نسائيًا يناديه من الخارج، فترك الطعام، وقام منتفضًا و(إجلال) تتمتم بأسى:

- لا تهنأ على طعام أبدًا!

خرج ليجد السيدة (أميرة) زوجة (محمود الغريب) أمام باب الغرفة بجلبابها المنزلي الأبيض ذي النقوش البنية، تبتسم بإشفاق وتقول:

- أعرف أن زوجي لم يقم بعمل اللازم.

ثم مدت له يدها بجنيهين، فأخذهما (صالح) وشكرها، ثم عاد إلى الغرفة، ملوحًا بهما إلى (إجلال):

- ألم أقل لك أن الله سيرزقنا؟!

فقالت:

- لا أدري كيف تعيش هذه المرأة الطيبة مع هذا الرجل الفظ البخيل، وكيف تحتمل إهاناته اليومية لها، أتدرى أنه يضربها؟ أحيانًا أسمع صوت هذه الضربات وصوت بكائها من المسقط.

فقال:

- نعم، سمعتهم كثيرًا، ومع هذا ما زالت تبتسم، وما زالت تحافظ على طيبتها، إنها تحيا من أجل بناتها.

في الصباح الباكر بدأ (صالح) عمله اليومي المعتاد بمسح سيارات السكان المتوقفة أمام البناية، يبدأ دائمًا بسيارة الأستاذ (أحمد رجائي) الموظف بهيئة ميناء القاهرة الجوي، حيث يخرج لعمله في السابعة صباحًا، ثم يتبعها بسيارة الحاج (سليم) مالك مطاعم (أبو إسلام) للمشويات، أما (إجلال)، فقد استدعتها الحاجة (رفيقة) زوجة الحاج (سليم) لمساعدتها في تنظيف الشقة، حيث يمثل هذا مصدرًا آخر من مصادر دخلهم.

في اليوم التالي، توجه (صالح) إلى شركة الأدوية على الكورنيش بحي "الساحل"، وبعد انتظار ساعات وصف طويل من البشر ومداولات ومشاحنات لا تنتهي، استطاع أخيرًا الحصول على علبة مدعمة من لبن الأطفال المجفف، تكرر الأمر كل شهر، فهم لا يصرفون أكثر من علبة واحدة لكل طفل شهريًا.

بعد عدة شهور، بدأت بطن (إجلال) في التكور، ضاق تنفسها، وأصبحت حركتها أبطأ، لم تعد تقوى على مساعدة (صالح) في مهامه - حتى البسيطة منها - فأصبح هو من يقوم بقضاء كل احتياجات سكان البناية، بما فيها شراء الخضروات واللحوم من الأسواق، قل دخلهم كثيرًا، حيث أصبحت كذلك لا تقوى على مساعدة السيدات في تنظيف المنازل.

في صباح شتوي بارد يوم الجمعة أيقظته (إجلال) في السادسة صباحًا، وهي تقول:

- (صالح) ... لقد أتى موعد الولادة، يجب الذهاب إلى المشفى الآن.

كانت تشعر بانقباضات في الرحم؛ مما ينذر بقدوم الضيف الجديد، ارتدى ملابسه في دقائق، وحمل الصغيرة (هدى) وعلق على كتفه حقيبة قماشية قديمة تحتوي على ملابس المولود الجديد، وانطلقوا إلى المشفى، أراد (صالح) استقلال سيارة أجرة، ولكنها أصرت على ركوبهما حافلة عامة، انطلقوا سيرًا على الأقدام إلى شارع "شبرا"، لم تكن المسافة كبيرة حتى محطة الحافلات، ولكن حركة (إجلال) البطيئة جعلتهم يقطعونها في مدة زمنية كبيرة، قلق (صالح) - الطبيعي - جعله يسألها بشكل متكرر كلما قطعوا عدة خطوات عن حالتها، ويعرض إيقاف سيارة أجرة، ولكنها في كل مرة كانت تطمئنه بأنها تستطيع المشي، وستتحمل حتى يصلوا إلى المشفى، كانت تريد الحفاظ على الجنيهات القليلة بحوزتهم لمصاريف الولادة، بدا شارع "شبرا" شبه خالٍ، هذا الشارع الذي عادة ما يكون مزدحمًا بالسيارات والمارة المتجهين إلى أعمالهم في هذا الوقت من النهار، ولكن يوم الجمعة دائمًا مختلف عن باقي أيام الأسبوع، وقفوا كثيرًا في انتظار حافلة تقلهم إلى المشفى، حتى جاءت أخيرًا.

دقائق قليلة، وكانت (إجلال) تجلس على أحد أسرّة "مستشفى الجلاء"، وسط رواق كبير يحوي عدة أسرّة، يفصل بينهم ستائر

قماشية بالية تمزق أغلبها في موضع التقائه بالحاملات المعدنية المثبتة في الأسطوانات الحديدية، صرخات النساء اللاتي ترقدن على هذه الأسرّة في انتظار الولادة، توسلات إحداهن للطبيب بأن يخرج بسرعة هذا الطفل الذي يمزق أحشاءها من الداخل، بكاء إحداهن وصبّ لعناتها على زوجها الذي كان سببًا في هذه المعاناة، رائحة الدماء الطازجة والممتزجة بروائح المطهرات واليود، حامت حولهم هذه المشاهد المتكررة في كل عنابر الولادة.

اقتربت ساعة الظهيرة، وأخبرهما الأطباء بأنه لا يزال أمامها ثلاث ساعات على الأقل حتى الولادة، فأشارت (إجلال) لـ(صالح) بأن يذهب للحاق بصلاة الجمعة، وأنها ستكون بخير، وضع (هدى) - التي ما تزال نائمة منذ استقلالهم الحافلة - بجوارها على الفراش، وخرج للبحث عن أقرب المساجد، وجدها فرصة جيدة للذهاب إلى مسجد "السلطان أبو العلا" الذي يبعد دقائق عن المشفى، دخل المسجد الذي بدأ يكتظ بالمصلين، كانت خطبة الجمعة عن الرضا بقضاء الله، والصبر على الابتلاء، والحمد الدائم لله على ما أعطى وما منع، دعا الله كثيرًا أثناء سجوده، دعاه بأن يكون هذا الطفل سندًا له في الحياة، دعاه بأن يكون حظه في الدنيا أفضل من حظ أبويه، وأن ينال من العلم ما لم يستطع هو تحصيله، وأن تقر به عينه، وعندما انتهت صلاة الجمعة جلس ليكمل دعاءه، والذي كان لـ(هدى) و(إجلال) نصيبٌ منه، عندما بدأ المسجد يفرغ من المصلين شعر بأن الله قريب منه، يسمع دعاءه ويشعر بأنفاسه التي أندت راحتي يديه، ودون أن يدري وجد نفسه يذرف الدموع، دموع

تجسدت فيها سنوات من الشقاء والمثابرة، قطرات ساخنة بللت وجنته، تجمعت بينهم آلام ظهره من حمل متاع ليس له، وحساسية صدر من سنوات الهواء الفاسد.

عاد ليجد (إجلال) ما زالت على حالها، انقباضات رحمية متقطعة في انتظار خروج الماء من المشيمة.

امرأة قوية هي (إجلال)، رغم كل هذا الألم، ورغم الانقباضات المتكررة، إلا أنها لم تصرخ على الإطلاق، منذ بدأت آلام الولادة في الصباح وحتى سال منها الماء الذي يغلف الطفل داخل الرحم، كانت تغلق عينيها، وتعض على شفتيها وتتأوه بصوت خفيض، تئن أنات متقطعة مع كل انقباضة.

صحبوها على كرسي متحرك إلى إحدى غرف الولادة، ووقف (صالح) بجوار بابه يداعب (هدى) في انتظار أن يسمع صوت بكاء المولود الجديد، طالت فترة انتظاره أكثر من اللازم، لم يحدث هذا في ولادة طفلته الأولى، خرجت إحدى الممرضات من غرفة الولادة مهرولة، ثم عادت بعد دقائق بصحبة رجل أشيب الشعر يرتدي زي الأطباء، لاحظ (صالح) نظرة قلق في عينيها لم يخفها قناع الوجه القماشي، فسألها عن حال زوجته، فأجابته باقتضاب وهي تندفع خلف الطبيب إلى داخل الغرفة:

- إن شاء الله خيرًا.

دقائق ثقيلة مرت على (صالح)، شعر بحركات غريبة في داخل الغرفة، سمع همهمات بين الأطباء يتخللها كلمات أجنبية، لم يفهم منها شيئًا، سمع حوارات غريبة بين الممرضات، فهم من بعضها أنهم يواسون (إجلال)، ولكن يواسونها على ماذا؟ هل مات الطفل؟

فجأة سمع صوت بكاء الطفل، انطلق بكاءً ضعيفًا متقطعًا من داخل الغرفة، مع صوت أحد الأطباء يحمد الله، تنهد (صالح) بعمق، وشعر بالارتياح، ارتياح مغلف بسعادة مبتورة وقلق من القادم.

خرج هذا الطبيب الأشيب مع الممرضة التي تحدثت في أذنه ببعض الكلمات، وهي تشير إلى (صالح)، توجه الطبيب مباشرة إليه، أخذ يتفحصه لثوانٍ كانت كفيلة ببث أطنان من القلق في قلب (صالح) وعشرات الأسئلة في رأسه، فبدأ بالحديث قائلاً:

- ماذا هنالك يا دكتور؟ هل هي بخير؟ هل الطفل بخير؟ هو ولدٌ أم بنتٌ؟

أومأ الطبيب برأسه إيجابًا وقال:

- اطمئن، إنها على خير ما يرام، والطفل ولد، وبحالة ليست سيئة ... ولكن ...

صمت الطبيب برهة لينزع قناع التنفس عن وجهه، ازداد توتر (صالح)، فنظر الطبيب مباشرة إلى عينيه، وقال بصوت عميق:

- طفلك سيكون مختلفًا.

فسأله (صالح):

- كيف؟

فقال:

- طفلك يعاني من أعراض تسمى علميًا متلازمة "داون".

هز (صالح) رأسه في عدم فهم، وأيقن الطبيب أن عليه أن يشرح لـ(صالح) الحالة تفصيلاً، فقال:

- ابنك يعاني من حالة موجودة بين أطفال كثيرين، يطلقون عليها عته منغولي، حالة لا سبب لها، تجعل الطفل مختلفًا عن الأطفال الطبيعيين، يحتاج إلى رعاية خاصة، ومعاملة خاصة، وتعليم خاص، حتى يستطيع الحياة بشكل طبيعي مع من حوله، والتعامل مع الناس.

نزلت الكلمات على (صالح) كجبل جليدي، أصاب جسده بالكامل، فتجمدت أحشاؤه، وضاق تنفسه، وأخذت أطرافه في الارتعاش، وخرجت الكلمات من فمه بصعوبة، وهو يقول:

- تقصد سيكون متخلفًا؟!

فقال الطبيب بصرامة:

- لا ... ليس متخلفًا ... ولكن مختلفًا ... مع قليل من الاهتمام سيستطيع الحياة والتعامل مع المجتمع ... كما أن هناك نماذج كثيرة لمصابين بمتلازمة "داون" يعيشون بيننا بشكل طبيعي ... على كل حال ستتعلم مع الوقت طريقة التعامل مع هذه الحالة.

ربت الطبيب على كتف (صالح)، وأكمل:

- الأهم الآن هو أن بنية الطفل ضعيفة، يجب أن يوضع في الحضانة لمدة ثلاثة أيام على الأقل، ولكن للأسف جميع الحضانات في المشفى مشغولة، عليك بالذهاب به إلى مشفى آخر، لا تنتظر كثيرًا، يجب دخوله الحضانة في خلال ساعتين من الآن، وإلا ستفقده.

تركه الطبيب ومضى، لم تستطع قدماه على حمله، سقط جسده على أرضية الردهة، احتضن (هدى) بقوة، وكأنه يحتمي ببراءتها من ضربات المطرقة التي تعبث في رأسه.

دقائق وخرجت إحدى الممرضات تحمل الطفل ضئيل الحجم، فوقف لاستقباله، وضعته في يده وسألته:

- ماذا ستسميه؟

نظر (صالح) في وجه الطفل، لم يسمعها، فكررت السؤال، كان كل تركيزه منصبًا على ملامح هذا الضيف، الوجه شبه المربع الناصع البياض، وكأنه يشع نورًا، الجبهة العريضة، الأنف الدقيق، الشفاه الصغيرة التي تكاد تختفي حول هذا الشق الصغير الذي يحدد الفم، الزوائد الجلدية الصغيرة تحت العينين، الأذن الدائرية الصغيرة البارزة، تذكر خطبة الجمعة، لماذا هذا التوقيت بالذات؟ إنها رسالة من الله، تنهد بعمق وتمتم:

- الحمد لله ... رضا.

انطلقت الممرضة في الردهة، وعادت بعد دقائق تحمل بعض الأوراق وطالبته بالتوقيع عليها، فهز رأسه في أسى، ففهمت الممرضة، وأخرجت من جيبها حبارة وهي تتمتم:

- كنت أعمل حسابي.

قامت بوضع بصمته على بعض الأوراق، ثم قالت له:

- مبروك.

وقفت تنتظر شيئًا ما، فهم (صالح) فأخرج من جيبه بعضًا من القروش أعطاهم لها، كان مبلغًا صغيرًا، فقلبت شفتيها في عدم قناعة، ثم تفحصته بدقة، وأيقنت أنه لن يستطيع تقديم ما هو أكثر، أعادت إليه بطاقته العائلية، وأعطته أوراق الولادة، وانصرفت وهي تقول:

- حسنًا ... مبروك يا أبو (رضا).

فاستوقفها قائلاً:

- (رضا)؟!! من (رضا)؟

عقدت حاجبيها، وقالت:

- هذا الطفل، ألم تسميه (رضا)؟

- أنا؟

- نعم ... عندما سألتك ماذا ستسميه، أجبت (رضا).

- لا أنا كنت أعني أنني راضٍ بما أعطاني الله، لم أعنِ أن أسميه ذلك.

زفرت الممرضة بقوة وقد نفد صبرها، وقالت بعصبية:

- لقد كتبت اسمه في الأوراق التي بصمت أنت عليها الآن، على كل حال تستطيع إعادة كتابتها وتغيير الاسم في مكتب الصحة عند إصدار شهادة الميلاد، عذرًا، فلدي عمل.

ثم تركته وانصرفت، نظر مرة أخرى إلى وجه الطفل، وتمتم:

- إنها إشارة من الله، هو من أسماه ... لن أغير الاسم ... (رضا) اسم جيد.

خرجت ممرضة أخرى تسحب (إجلال) فوق أحد المقاعد المتحركة، انحنى ليطمئن على زوجته التي بدا عليها إعياء الولادة، وقفزت في عينيها عشرات الأسئلة، خرج بعضهم منها بصعوبة وبكلمات متقطعة:

- كيف حال الطفل؟ ماذا به؟ ماذا به؟

فربت على كتفها، وقال بحنان:

- اطمئني ... سيكون بخير.

لم يكن مقتنعًا تمامًا بما قال، ولكنه لن يحملها سماع ما لا تطيق، ليس الآن، تململت الممرضة التي وقفت بجواره تنتظر، فأخرج من

جيبه بعضًا من القروش أعطاهم لها، وحصل على نفس ردة الفعل، تقليب الشفاه في عدم قناعة، فقالت:

- عندما تستطيع النهوض يمكنكم الانصراف.

ثم مضت، فتبعها وبعد عدة خطوات استوقفها، وسألها بصوت خفيض حتى لا تسمع زوجته:

- أما يوجد مشفى قريب به حضانات؟ وتكون مجانية.

تحول وجه الممرضة لما يشبه نظرة إشفاق، وقالت:

- يمكنك الذهاب به إلى "مستشفى أبو الريش".

همت بالانصراف، ولكنها توقفت، ونظرت إليه نظرة طويلة متفحصة، جسده الهزيل، حذاؤه الذي يبرز أصابع قدميه، ملابسه القديمة البالية، والتي يتضح أنها لم تكن له وهي جديدة، وقد وهبها له أحدهم بعد أن أنهكها ارتداءً، تطلعت إلى الطفل بين يديه، ثم هزت رأسها في أسى، وهي تقول:

- أو اتركه لمصيره، إذا توفي سيكون من رحمة الله ... له ولكم.

تركته الممرضة وقد ازدادت حيرته، كلامها أطلق ذئابًا مفترسة تنهش في قلبه، تُصارع ضميره وعاطفة الأبوة التي تُنتَزع أحيانًا من بعض الآباء، ولكن هل يستطيع هو نزعها من داخله؟

عاد إلى زوجته التي يحرق القلق على مولودها جسدها أكثر مما يفعل إعياء ما بعد الولادة، مدت يديها في إشارة بأن يعطيه لها، حاول أن يثنيها عن ذلك بالربت على كتفها، وهو يقول:

- ليس الآن، عندما تستعيدين قوتك.

فقالت وما تزال الكلمات تخرج بصعوبة منها:

- أريد أن أراه، ماذا به؟ لماذا كانت الممرضات تواسينني؟

إصرارها جعله يضع الطفل بين أيديها، وهو يقول:

- لا شيء به، إنه بخير.

التقطته بلهفة، أخذت تتحسس وجهه المسطح، جبهته العريضة، أنفه الدقيق، شفتاه الصغيرتان، الزوائد الجلدية الصغيرة تحت العينين المشدودتين لأعلى، الأذن الدائرية الصغيرة البارزة، تحسست يداه، وقامت بعدّ أصابعهما القصيرة عن المعتاد، انتقلت إلى ذراعه، إلى كتفه، ثم تحسست قدميه الصغيرتين وأصابعهما والتي يبتعد فيهما الأصبع الكبير قليلاً عن رفاقه، كاحله المتعرج، مفاصل القدم، ركبتيه، ثم بدأت في نزع ملابسه لتتفقد باقي جسده، أعضاءَه التناسلية، قفصه الصدري، مؤخرته، صرخ فيها (صالح):

- ماذا تفعلين؟ الجو بارد، ستعرضينه للبرد في هذا الجو، ألم أقل لك إنه بخير!

لم يستغرق الأمر منها سوى ثوان قليلة، ولكنها كانت كافية لتبث بعض الاطمئنان الزائف في قلبها، تعلقت (هدى) بقدمها، وبدأت تسحبها من جلبابها في محاولة لاستعادة أمها من ذلك الضيف الذي ظهر فجأة ليختطفها منها، حاول (صالح) منعها برفق فحملها، ولكن ذلك لم يثنها عن طلبها، وإنما ازدادت لهفتها على أمها، وبدأت في البكاء ومحاولة إلقاء جسدها على (إجلال) التي قالت:

- اسحبني إلى مكان خالٍ، سأحاول أن أرضعه.

بالفعل سحب (صالح) المقعد، وهو يقول لها:

- (رضا) ... لقد أسميته (رضا).

ثم توجه بها إلى أحد الأركان، وضع وجهها مواجهًا للحائط، وحاول قدر الإمكان حجْبها عن الأنظار بجسده، أخرجت ثديها ووضعته في فم الطفل، ولكنه لم يستجب، حاولت مرة أخرى، ولكنها لم تستطع أن تجعله يمتص ما بداخله، بدت عضلات وجهه مرتخية وكأنه لا يملك القدرة على التحكم بها أو تحريكها، عاد قلقها يزداد شيئًا فشيئًا، حاولت مرة أخرى، وأخرى، ولكن دون جدوى، حتى بلغ بها اليأس، وقالت:

- ماذا بهذا الولد؟ ماذا به؟

ربت (صالح) على كتفها قائلاً:

- حاولي النهوض، لنذهب الآن، وَلْنَرَ ماذا سيحدث بعد ذلك.

كان (صالح) قد حسم أمره، لن يذهب به إلى "مستشفى أبو الريش"، أو أي مشفى آخر، سيتركه لمصيره، سيتركه للموت.

***

هذه المرة استقلوا سيارة أجرة في طريق العودة، دفع لها (صالح) أغلب ما كان يمتلكه من نقود.

دخلوا غرفتهم، وأرادت (إجلال) الاغتسال بسرعة حتى تحاول مرة أخرى إرضاع (رضا)، تعلقت بيد (صالح) ليساعدها على صعود الدرجتين حتى تصل إلى دورة المياه، مساحة صغيرة لا تتعدى مترًا واحدًا طولاً ومثله عرضًا، تحتوي على صنبور مياه وحيد يقبع تحته إبريق متصدع من الألومنيوم، وفي منتصفها تمامًا فتحة صغيرة تطل مباشرة على غرفة تجميع الصرف الصحي الخاصة بالبناية، لهذا؛ ترتفع دورة المياه درجتين حتى لا تغرق الغرفة بمياه الصرف، لا يستر من بداخلها سوى قطعة قماش بالية مثبتة بمسمارين في الحائط.

ألقت على جسدها عدة أباريق من المياه الباردة لتزيل آثار المخاط والدماء المتجلطة، ارتدت ملابسها، ووضعت قطعًا كثيرة بالية من القماش بين قدميها لامتصاص الدماء التي تتساقط بعد الولادة، ثم خرجت بسرعة لتحاول إرضاع (رضا)، ولكن مرة أخرى باءت المحاولة بالفشل، بدأ الطفل في محاولات يائسة للبكاء، خرجت من جوفه دفقات متقطعة أقرب إلى الفواق منها للبكاء، وكأن حجرًا ما يسد جوفه يحاول إلقاءه خارجًا دون جدوى.

أحضرت (إجلال) البرونة البلاستيكية التي كانت تستخدمها في إرضاع (هدى)، وأعدت له وجبة دافئة من بقايا لبن الأطفال المجفف، والذي كان متبقيًا في علبته بعد أن تم فصال أخته، وضعت حلمة البرونة في فمه، وبدأت تعتصرها لتتساقط منها القطرات على لسانه الغليظ، وأخيرًا بدأ في ابتلاع ما يتساقط داخل فمه.

توقفت (هدى) عن اللعب، وأخذت تنظر إلى هذا الضيف الثقيل الذي اختطف منها أمها، واستولى على ملابسها ومقتنياتها ومصادر غذائها.

أما (صالح)، فأخذ يترقب، لقد مرت الساعتان اللتان حذره الطبيب من انقضائهما، بين لحظة وأخرى سينقطع تنفس الطفل، سيتحول لون جلده من الأصفر إلى الأزرق، سيفارق الحياة، ماذا ستكون ردة فعل (إجلال)؟ هل ستبكي؟ ستصرخ، ستلطم الخدود، هل ستلومه؟ ستحمله ذنب موت ابنها؟

سمعها تقول له:

- إن جسده ضعيف، وجلده شديد الاصفرار، الولد يحتاج لطبيب.

لم ينطق، هز رأسه وخرج من الغرفة، جلس على المقعد الخشبي بجوار مدخل البناية، أخذ يفرغ ما في جوفه مع دخان الشيشة، وانتظر الخبر.

ولكن الخبر لم يأته.

في المساء تمدد بجسده على الحصيرة، لم يعد هناك مكان فوق الفراش، (إجلال) و(هدى) وبجوارهما الصغير (رضا) على سرير عرضه لا يتعدى المائة والعشرين من السنتيمترات، لم يكن افتراش الأرض جديدًا عليه، فقد اعتاد عليه منذ كان صغيرًا في منزل والده، كان ينام على حصيرة فوق أرضية صلبة متعرجة من الأرض الطينية المكسوة بطبقة رقيقة من الأسمنت.

انقضى اليوم الأول، والثاني، والثالث، و(رضا) على نفس الحال، جسد هزيل، جلد أصفر، لسان كبير يجعل تنفسه ثقيلاً ويتدلى خارج فمه حتى يسمح للهواء بالمرور، لا يستطيع الرضاعة، لا يقدر على امتصاص اللبن من صدر أمه، بالكاد يتمكن من ابتلاع قطرات من لبن البرونة التي تسقطها أمه في فمه.

ولكنه لم يفارق الحياة.

انتشر خبر ولادة (إجلال) بين سكان البناية، الكريم منهم كان يعطي (صالح) مبلغًا من المال، أما أغلبهم، فكان يكتفي بالسؤال عن حال زوجته والمباركة بالمولود الجديد.

طلبت منه (إجلال) الذهاب إلى شركة الأدوية لإحضار علبة من لبن الأطفال المدعم، كان يحاول مماطلتها قدر المستطاع، لم يرد أن يضيع يومًا كاملاً في الذهاب إلى شركة الأدوية بكورنيش النيل والوقوف في صف طويل لا يخلو من الصراعات والمشاحنات، حتى

يحصل على علبة من اللبن لطفل يحتضر، من المحتمل ألا يستخدم منها حتى جرعة واحدة.

ولكنه امتثل أخيرًا، وأحضر علبة اللبن، وأخذ يراقبها وهي تفرغ شيئًا فشيئًا، و(رضا) بدأ يتعافى ببطء، ذهب اصفرار جلده، استطاع أخيرًا أن يمتص ما في البرونة، وبعد أسبوعين بدأ في الرضاعة الطبيعية من ثدي أمه.

بعد شهرين ظهر شبح ابتسامة على وجهه، كانت أولى ابتساماته لأخته (هدى) التي استسلمت سريعًا للأمر الواقع، رغم كونها لم تتم عامها الثاني بعد، إلا أنها اقتنعت بدور الوصيف في حياة والدتها لتفسح المجال لـ(رضا) ليحتل دور البطولة.

لم تسأل (إجلال) عن سبب اختلاف ملامح (رضا) وجسده عن الأطفال في مثل عمره، و(صالح) لم يبح لها بشيء، كانت بطبعها قليلة الكلام، ولكن ازداد صمتها بعد الولادة، تساءل (صالح) في داخله عن سر صمتها، لماذا لم تسأله عن حالة (رضا)، هل لم تلحظ اختلافه؟ هل لاحظت، ولا تفضل الحديث عن ذلك؟ هل تعرف، ولكنها تنكر واقعها؟ هل تلومه على عدم وضع (رضا) في حضانة؟ ولكنها لم تسمع ما قاله الطبيب له!! ربما عرفت ذلك داخل غرفة الولادة، ربما تلومه على ترك (رضا) ليواجه الموت، ولكن الطفل لم يمت، عاش ليواجه مصيرًا مجهولاً في عالم لا يعرف معنى الاختلاف، ولا يقدر المختلفين.

بعد انقطاع النفاس أصر (صالح) بأن تذهب إلى الوحدة الصحية ليضعوا في رحمها ما يمنعها من الحمل مرة أخرى وهي تقوم بالرضاع، لم يكن يهتم كثيرًا بحملات تنظيم الأسرة التي تنتشر في الشوارع، ولا الإعلانات التي تذاع كل خمس دقائق، ويشاهدها على تلفاز قهوة "الصعايدة" التي يمر بها بشكل يومي، ولكن كان أكثر ما يهمه ألا يكرر ما فعله والده، فهو كوالده لن يورث أبناءه سوى الفتات من بقايا الفقر.

(2)

بدأ جسد (رضا) في التعافي شيئًا فشيئًا، ومع عامه الأول بدأ أولى خطواته، مشى قبل أن يزحف، ولكن ظل صوته ثقيلاً، لم ينطق بحرف واحد حتى أتم عامه الثاني، كانت أولى كلماته اسم أخته (هدى)، وكانت تصدر من فمه كأنه يقول "أددا"، فحركة شفتيه ولسانه كانت ثقيلة لا يستطيع جعْلهما متناغمتين، ورغم أنه لم يكن غبيًا أو ضعيف الفهم، إلا أن استجابته للكلمات أو الأفعال كانت بطيئة لا تتناسب مع سنوات عمره.

ومع بلوغ عامه السابع أراد والداه إلحاقه بالمدرسة كما فعلوا مع أخته، وبنهاية العام الدراسي الأول لها، ومع بداية الإجازة الصيفية أعد والده أوراقه، ووضعها في ملف أبيض وصحبه إلى نفس المدرسة الابتدائية المشتركة التي تنتظم بها (هدى)، على باب المدرسة استقبلهم الحارس عم (عبد البر) بجلبابه البني وعمامته البيضاء، والذي داعب (رضا) بلكنة صعيدية لم يفهم منها شيئًا، ولكنه ابتسم، ولوّح له بيده.

كان (عبد البر) يعرف (صالح) و(رضا)، حيث كان الأول يتناوب مع (إجلال) في توصيل واصطحاب (هدى) من المدرسة، وأحيانًا يصطحب أحدهما (رضا) معه.

سأله (عبد البر):

- هل جئت لإلحاق (رضا) بالمدرسة؟

فأجابه (صالح):

- نعم.

هز الرجل كتفيه في إشفاق، وأشار إلى نافذة في طرف فناء المدرسة، وقال:

- شباك التقديم هناك، عند السيدة (سوسن).

أمسك (صالح) يد (رضا)، واعتصرها بقوة، وهو يتقدم نحو هذه النافذة الطويلة التي تآكل خشبها وبهت لونها، خطوات داخل الفناء الخالي الذي بدا وكأنه صحراء قاحلة يخطو فيها تائهًا بلا دليل، كان يشعر بأن النتيجة حتمية، ولكن لا بأس من المحاولة، لا بأس من الجهاد، لن يحرم أبناءه مما حرم هو منه كرهًا.

وصل إلى النافذة المرتفعة قليلاً عن مستوى الكتف، رفع رأسه يتطلع بداخلها، فظهرت له السيدة (سوسن) تجلس على مقعد خشبي متهالك خلف مكتب مكدس بالأوراق والملفات، تضع أمامها إناء معدنيًا كبيرًا وفي إحدى يديها قطعة من الباذنجان الأبيض تقوم بنحتها من الداخل بمقوار في يدها الأخرى، فبادر (صالح) بالكلام:

- صباح الخير يا أستاذة.

فنظرت له (سوسن) من فوق نظارتها الطبية السميكة، وقالت دون أن تترك ما بيدها:

- صباح الخير ... أية خدمة؟

فمد (صالح) يده بالأوراق من بين القضبان الحديدية الصدئة للنافذة، وهو يقول:

- جئت لتقديم أوراق ابني (رضا) للالتحاق بالمدرسة، هنا مع أخته (هدى).

زفرت (سوسن) بضيق، وتركت قطعة الباذنجان والمقوار من يدها داخل الإناء، ونفضت يدها، ثم قامت بصعوبة تحرك جسدها البدين بخطوات متثاقلة حتى النافذة، سحبت الأوراق من يده بسرعة، وألقتها أمامها على المكتب فوق كومة الملفات الأخرى، ثم عادت لما كانت تفعله، وهي تقول:

- تعال بعد شهرين لتعرف إن كان قد قُبل بالمدرسة أم لا.

ثم بدا أنها تذكرت شيئًا، فأمسكت الملف مرة أخرى، وهي تقول:

- انتظر ... هل الأوراق كاملة؟

فتحت الملف لتراجع الأوراق، وهي تقول:

- أصل شهادة الميلاد ... صورة بطاقة الأب ... ستة صور لد ...

فإذا بها تتوقف عند صور (رضا)، أخذت تدقق النظر للحظات، ثم سألته:

- أهذا ابنك الذي تريد التقديم له بالمدرسة؟

- نعم.

- أين هو؟

- معي هنا.

اقتربت (سوسن) من النافذة، ومدت رأسها بين القضبان المعدنية، ونظرت للأسفل نحو (رضا)، والذي نظر لها بدوره وابتسم، عدلت نظارتها الطبية، وقالت لـ(صالح):

- انتظر هنا قليلاً.

ثم خرجت من المكتب، وملف (رضا) بيدها.

دقائق قليلة مرت على (صالح) كأنها ساعات، يعرف أن الأمر لن يكون سهلاً، ولكن إلى أي مدى؟ عادت (سوسن) لتخبره بأنه سيقابل مدير المدرسة، فصعد إلى الطابق الأول حيث مكتبه.

رجل في أواخر الخمسينات من العمر، يحاول إخفاء صلعته بتثبيت بعض الشعيرات الطويلة المصبوغة بالأسود من الجانب إلى منتصف رأسه، إلا أنها أبت، فاستدارت فوق الجلد، فبدت وكأنها كثبان رملية سوداء تدور في عاصفة رملية فوق هضبة ملساء.

كان يلوك قطعة من شطيرة الفلافل الموضوعة أمامه على ورقة من جريدة قديمة مسح أصابعه في طرفها، ثم التقط ملف (رضا) من

أمامه، وأخذ يقلب فيه، وهو يداعب شاربة الكث، ثم نظر إلى (صالح) الذي يقف أمامه قابضًا على يد (رضا).

أخذ مدير المدرسة يقلب نظره بين الملف وبين وجه (رضا)، هذا الوجه المسطح شبه المربع، العينين المسحوبتين والتي يقبع تحتهما زوائد جلدية صغيرة، خصلات شعره الناعم المنسدلة على جبهته، لسانه الكبير الذي يخرجه من بين شفتيه حتى يستطيع التنفس.

هز مدير المدرسة رأسه ومط شفتيه، وقال:

- لدينا في المدرسة ما يكفي من المتخلفين، لا نريد المزيد منهم.

بدا الغضب واضحًا على (صالح)، ولكنه ابتلعه، وحاول أن يكون هادئًا، وهو يقول:

- ابني ليس متخلفًا، يمكنك اختباره كما تشاء.

فرد المدير:

- لا حاجة لي باختباره، مجرد النظر إلى وجهه يكفي، لن أقبل في مدرستي طفلاً منغوليًا.

ثم أغلق الملف، وأعاده إليه.

كان (صالح) يتوقع ذلك، ولكنه لم يكن يتوقع أن يصيبه كلام مدير المدرسة بكل هذا القدر من الغضب والإحباط، يعرف أن ابنه مختلف، ليس ككل الأطفال، ولكن أليس من حقه أن يتعلم؟ أليس من حقه أن يعيش حياة طبيعية؟ أليس من حقه أن يجرب ويخطئ،

ويتعلم من أخطائه؟ ليس من حق أحد أن يقطع عن (رضا) شرايين الحياة، من أعطى الحق لمدير المدرسة أن يمنع (رضا) من دخولها؟ لا يملك هذا الرجل صكوك الغفران ليوزعها على من يشاء ويمنعها عمن يشاء، ولكن، ماذا يملك (صالح) لدفع الظلم؟ لا شيء.

عاد إلى غرفته مهزومًا في أولى معاركه الكبرى، فهل يستسلم؟ هل يعلن الانسحاب تاركًا (رضا) بلا حصون دفاعية؟ ولكنه لا يملك أيًّا من أسلحة الحرب، لا مال، لا نفوذ، أو حتى أبسطها، وهي المعرفة.

لكن (إجلال) لم تيأس، بدأت بالخطوة الأولى، معرفة الطريق، بعد سؤال كل سكان البناية والجيران نصحها بعضهم بالذهاب للإدارة التعليمية لتقديم شكوى، وبالفعل، استقلت الحافلة صباحًا إلى "إدارة شمال القاهرة التعليمية"، وفي يدها ملف (رضا)، تلقفها الموظفون بلا مبالاة، وكل يقذفها للآخر، من الدور الأول إلى الرابع وبالعكس، حتى تعاطفت معها إحدى الموظفات ونصحتها بالذهاب لعم (شعبان) الذي يجلس بجوار بوابة البناية ليقوم بكتابة الطلب لها، رجل تجاوز الخمسين من العمر، يدخن بنهم، ويسعل أكثر مما يتنفس، ليس موظفًا في الإدارة، ولكنه يعرف النظام والروتين أكثر من مدير الإدارة نفسه، التقط (شعبان) الملف من (إجلال)، تفحصه لثوانٍ، ثم أخرج ورقة بيضاء أخذ يخط فيها بعض الكلمات، ثم قال لـ(إجلال):

- عشر جنيهات.

فقالت باندهاش:

- عشر جنيهات؟! لماذا؟!

فأجاب بتململ:

- طابع دمغة بجنيه وطابع تعليم بخمسة جنيهات، والباقي عرقي.

أخرجت (إجلال) كل ما في جيوبها من نقود، كانوا ثماني جنيهات، أعطتهم للرجل، وهي تقول:

- أقسم بالله أنني لا أملك سوى هذه النقود.

قلبهم بين يديه، ثم مط شفتيه، وكاد أن يرفض لولا توسلات (إجلال) له حتى أنها أقسمت له بأنها لا تملك ما تستطيع به العودة إلى منزلها، لم يجد حلاً أمامه فوضع النقود في جيبه وأخرج طوابع الدمغة من الجيب الآخر، بصق فيهم، ثم وضعهم على الطلب الذي كتبه ودسّه في الملف، أشار لها أن تتبعه، صعدت خلفه إلى الدور الثالث، اقتحم أحد المكاتب دون حتى أن يطرق الباب حيث ثلاثة من الموظفات يجلسن في غرفة ضيقة حول مكتب واحد يثرثرن، ويضحكن بصوت مرتفع، رفعت إحداهن رأسها، وقالت بضيق؛ حيث قطع (شعبان) حديثهنّ المبهج الهام من أجل شيءٍ أقل أهمية، وهو العمل:

- خير يا عم (شعبان)؟

فوضع الملف أمامهن على المكتب، وهو يقول:

- طلب إلحاق لابن هذه السيدة الغلبانة بالمدرسة.

ثم استدار لـ(إجلال) وقال:

- بعد شهر تأتي هنا لمدام (إنصاف) لتعرفي مصير الطلب.

ثم استدار ومضى، تاركًا (إجلال) التي عادت إلى غرفتها مشيًا على الأقدام لخمس محطات كاملة تحت شمس يوليو الحارقة.

انقضى الشهر الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، و(إجلال) تتردد بشكل أسبوعي على مكتب (إنصاف) لتعرف مصير الطلب الذي قدمته، ولا تتلقى سوى إجابة واحدة:

- تم رفع طلبك للوزارة، ونحن في انتظار الرد، تعالي الأسبوع القادم.

(3)

أستيقظ يوميًا مع أذان الفجر، أحب سماع صوت المؤذن بمسجد "أبو الفضل" في الشارع المجاور، أقفز من فوق أبي الذي لا يزال نائمًا فوق الحصيرة، وأخرج من الغرفة لأقف على باب البناية لأشاهد العائدين من صلاة الفجر، من بينهم عم (رأفت) الذي يسكن بالدور الأول، يمر بجواري متكئًا على عصاه الخشبية، يلقي عليّ تحية سريعة، ثم يدخل شقته، أملأ صدري برائحة الصباح، وأنتظر عم (يوسف)، مع أول ضوء للنهار يظهر على مدخل الشارع، قادمًا من شارع "جسر البحر"، هذا الرجل الذي جاوز الستين من العمر، يدفع أمامه بحماس ونشاط العربة الخشبية التي تحمل قدرًا كبيرًا من الفول وآخر أصغر قليلاً للبليلة، ليقف على ناصية الشارع المجاور للبناية شراع "مراد"، ثم يذهب لجمع الأواني، أوانٍ معدنية وبلاستيكية وأخرى فخارية وضعها سكان المنطقة في أقفاص خشبية مربوطة بحبال تتدلى من الشرفات وبداخلها النقود، بعضهم يتدلى في مكانه منذ المساء، يعرف عم (يوسف) زبائنه ويعرفونه، يعرف من يريد منهم أن يملأ آنيته بالفول ومن يملأ آنيته بالبليلة، ثم يعيدهم إلى أقفاصهم الخشبية، وسكان المنطقة يعرفون أنه لم يتخلف يومًا عن الحضور، لم يقل نشاطه، ولم يخفت حماسه منذ عقود، أنتظر حتى يفرغ من الأواني المتدلية، لأهرع إلى الغرفة وألتقط الآنيتين المعدنيتين الموضوعتين بجوار الموقد، والجنيهين الموضوعين تحتهما، لأنطلق إلى عم (يوسف) الذي يقابلني بابتسامته المعتادة:

- بواحد ... جنيه ... فول ... وبواحد ... جنيه ... بليلة.

أقولها وأنا أعرف أنه لا ينتظر سماعها، فهو يعرف طلبي اليومي، ولكنه يهز رأسه في تفهم ويقول وهو يملأ الآنيتين:

- أحلى فول ... وأحلى بليلة ... لأحلى (رضا).

أحب رائحة القش المبلل بالماء والذي يفترش عربته تحت آنية الفول، أملأ صدري برائحة الفول المدمس التي تخرج مع البخار من فم القدر، ألتقط منه الآنيتين، وأهرع إلى غرفتنا لأضعهما مكانهما بجوار الموقد، ثم أعود مرة أخرى لأقف على باب البناية لأراقبه وهو يعمل، بعد قليل تخرج (ماري) ابنة الأستاذ (شريف) من شقتهم بالدور الأول، تمسك بيدها أخاها (ماجد) ليقفا على ناصية الشارع بجوار عم (يوسف) حيث ينضم إليهم عدد آخر من الصبية والفتيات انتظارًا لقدوم حافلاتهم المدرسية، يؤنسون عم (يوسف) وهو يعمل، ويشعرون بالأمان بتواجدهم بجواره، ثلاث حافلات تأتي تباعًا، كل حافلة تحمل مجموعة من الطلاب إلى مدرستهم، تمنيت لو أقف معهم، وتأتي إحدى الحافلات تأخذني إلى مدرستي، أحمل زمزمية المياه وكيس الشطائر داخل حقيبتي خلف ظهري، أحمل كراساتي وكتبي وأقلامي، علبة ألوان خشبية وكراسة رسم كبيرة، أرسم فيها الشجرة الكبيرة بجوار مسجد "أبو الفضل"، والتي تُظلل المصلين يوم الجمعة، أرسم العصافير التي تقف فوقها، أرسم عم (يوسف) وعربة الفول والبليلة، أرسم (سارة) الجميلة ابنة السيدة (مديحة)، أرسم صديقي (حمزة)، أرسم أبي وأمي، ضحكة أختي

(هدى)، وهي تحاول الرقص على أصابع قدمها لتقلد راقصات الباليه اللاتي تراهن في تلفاز السيدة (إيناس) زوجة عم (سعد) بالدور الثالث عندما تصعد مع والدتي لتساعدها في تنيظف شقتهم.

ولكنني قد تجاوزت التسع سنوات، ولم أدخل المدرسة بعد.

ربما لأن شكلي مختلف!

ينعتني بعض صبية الحي بالعبيط، أو بالمنغولي، لا أعرف معنى هذه الكلمة، ولكنني أعرف أنني لست كذلك، بعضهم يتعمد مضايقتي، عندما أذهب لشراء الحلوى من كشك عم (حامد) على ناصية الشارع المجاور، هذا الصبي المسمى (باهر) الذي يقطن في البناية المجاورة له دائمًا ما يشير إليّ، ويعبث بوجهه بتعبيرات ساخرة، يخرج لسانه ويضع كفَّيْ يديه على أذنيه، ويقول بصوت مرتفع:

- يا منغولي ... يا عبيط.

ثم يضحك هو وأصدقاؤه.

توجهت إليهم يومًا وقلت:

- أنا ... لست ... عبيطًا.

فأسقطوني أرضًا، وأوسعوني ضربًا، خلصني عم (حامد) من بين أيديهم وأرجلهم بصعوبة، بعدها منعني والدي لفترة طويلة من الذهاب بمفردي إلى كشك عم (حامد).

بعض الصبية الذين لا أعرفهم يقذفونني بالحجارة، يضحكون بشدة ويهتفون: "العبيط أهو ... العبيط أهو"، حتى إن بعض الحجارة تحدث بي جروحًا وكدمات.

هناك أيضًا من يتجنبني، لا يتحدث معي، ولا يريد أن أتحدث معه، مثل (ماري) ابنة الأستاذ (شريف) والتي لا تريدني حتى أن أتحدث مع أخيها (ماجد).

ليس جميعهم كذلك، فهناك من يلعب معي، إنه صديقي (حمزة) ابن عم (محمد السباعي) الذي يسكن في الدور الرابع، رغم أن أخاه الأكبر (حذيفة) لا يحب التحدث معي، إلا أن (حمزة) دائمًا ما يحضر الكرة الخاصة به لنلعب بها سويًا في مدخل البناية.

كذلك (سارة) الجميلة ابنة السيدة (مديحة) بالدور الثاني، دائمًا ما تبتسم لي وتداعبني، أنتظر كل يوم لأراها وهي تنزل درجات السلم، بردائها الكحلي وحافظة الكتب الكرتونية التي تحتضنها، بشعرها الأسود الناعم الذي ينسدل على كتفيها، متوجهة إلى مدرستها، تلقي عليّ التحية، فأجدني أقفز فرحًا وتتحرك يدي في حركات دائرية سريعة من السعادة، أرد عليها التحية وأنا أضحك، وأنتظرها عندما تعود من المدرسة، أعرف تمامًا موعد عودتها، فأنا أحبها كثيرًا.

صارحتها يومًا بحبي، حيث قلت لها:

- أنا ... أحبك.

فابتسمت وقالت لي:

- شكرًا يا (رضا).

فقلت:

- تتزوجينني؟

فقالت:

- ولكنني أكبر منك سنًا، فأنا في الساسة عشر من عمري، وفي الصف الثاني الثانوي، وأنت لم تتعد التسع سنوات.

فقلت:

- سأدخل المدرسة ... وعندما أكون ... في مثل عمرك ... سنتزوج.

فابتسمت، وقالت:

- سأنتظرك إذن.

ثم صعدت لشقتها بعد أن جعلتني أضحك، وأقفز من السعادة.

أفطر أنا و(هدى) يوميًا بالبليلة مع قليل من اللبن الذي تجلبه لنا طازجًا كل يوم (سعدية) بائعة اللبن، والتي تأتي من منطقة "الهيشة" المجاورة تحمل سطلاً كبيرًا لتبيع اللبن لساكني البناية، نكتفي نحن بشراء ربع كيلو، حيث يكفينا ليوم واحد، يفطر أبي وأمي بالفول المدمس والذي يحب والدي إعداده بنفسه، يضيف له الملح والكمون وقليلاً من الزيت والليمون، بعد الإفطار يقوم والدي بغسيل

السيارات أمام البناية، أراقبه لأحاول أن أتعلم منه ذلك، ثم يصطحب أحدهم (هدى) إلى المدرسة، وأحيانًا يأخذني معه، أشاهد الطلبة وهم يدخلون المدرسة في الصباح الباكر بوجوه عابسة وملابس نظيفة، وأشاهدهم وهم يخرجون من المدرسة في آخر النهار بوجوه سعيدة وضحكات مجلجلة وملابس متسخة وممزقة، أريد أن أكون معهم، أريد أن أحصل على هذه السعادة التي تعطيها لهم المدرسة، ولكن لا أريد أن يصحبها اتساخ ملابسي أو تمزيقها.

هناك عم (رأفت) الرجل العجوز الذي يسكن بالدور الأول، لا يخرج من شقته إلا في أوقات الصلاة، يتكئ على عصاه الخشبية، ويخطو ببطء داخل جلبابه الأبيض متوجهًا نحو مسجد "أبو الفضل" حتى تنقضي الصلاة، فيعود كما ذهب، يغلق عليه شقته حتى موعد الصلاة التالية، يعتمد على والدي في شراء كل طلباته، لا يضحك أو حتى يبتسم، لا يتحمل أن يرتفع صوتنا أنا و(حمزة) ونحن نلعب الكرة في مدخل البناية، فيفتح باب شقته ثم ينادي على والدي:

- يا (صالح) ... ما هذه الضوضاء؟

فينتفض والدي مفزوعًا ويمنعنا من اللعب، يقول أن الحاج (رأفت) هو مالك البناية، وهو من أعطاه هذا العمل، ولهذا؛ لا يجب أن يغضب منه لأي سبب.

أما عم (فايز)، فهو ألطف من بالبناية، كلما رآني يبتسم، يُحيّيني ويداعبني ويعطيني الحلوى، حتى إنه في أحد الأيام بحث في جيبه فلم يجد، فهرع نحو كشك عم (حامد) وابتاع الحلوى ليعطيني بعضًا

منها قبل أن يستقل سيارته ليذهب إلى عمله، تقول والدتي أن الله لم يرزقه بأبناء، ولهذا؛ يحب أن يداعب الأطفال ويعطيهم الحلوى، لهذا؛ يملأ جيبه بها، ولكن والدي لا يحبه، يقول إنه رجل حشاش وسكير - لا أعرف معنى هذه الكلمات - ويجب أن نحتاط منه، وأنه يضع الحلوى دائمًا في جيبه ليواري بها رائحة الخمر التي تفوح من فمه، كما إنه دائم الشجار مع زوجته التي تغيب كثيرًا عن المنزل.

يأتي عم (عصام) الذي يبيع الجرائد والخبز بجوار مسجد "أبو الفضل" كثيرًا إلى والدي، يجلسان على المقعد الخشبي بجوار مدخل البناية يدخنان الشيشة، ويتحدثان في أمور كثيرة، يتحدثان عن السياسة وكرة القدم وأسعار السلع التي ترتفع يوميًا، يتحدثان عن غلاء المعيشة وضيق الأحوال، أحب أن أجلس بجوارهما لأسمع أحاديثهما الشيقة، أعلم أن أبي لا يعرف القراءة أو الكتابة، فهو لم يتعلم أو يدخل المدرسة، أما عم (عصام) فيعرف القراءة، فقد استمر في التعليم حتى الصف السادس الابتدائي، وكان يجب أن يترك الدراسة ليقف على فرشة والده المريض، والذي يبيع فيها الجرائد والخبز البلدي، وأكمل تعليمه عن طريق تصفح الجرائد التي يبيعها، ولهذا؛ يحب أبي أن يجلس معه ليتلو عليه كل الأخبار التي تكتب في الجرائد اليومية، وأحيانًا يحضر معه بعضها ويقرأها لأبي، ودائمًا ما يطالبه أبي بأن يبدأ بكاريكاتير "مصطفى حسين" ومقال "نصف كلمة" لـ"أحمد رجب" في جريدة الأخبار - حفظت أسماءهم من كثرة ما يكررهم أبي - يسمعهم منه ويضحك، أحيانًا كنت أضحك معه، رغم أنني لا أفهم منهما شيئًا.

في أحد الأيام صحبتني أمي لأول مرة إلى سوق "قشقوش"، كانت تبتاع الخضروات لنا ولسكان البناية، السوق دائم الازدحام، بائعين وبائعات يفترشون الأرض ببضائعهم، وآخرون يقفون على عربات خشبية، يبيعون البطاطس والطماطم والبصل والخضروات، وقفت أمي أمام إحدى البائعات تنقي بعض البطاطس، بجانبنا كان متجر الفاكهة يضع الأقفاص الخشبية الممتلئة بالبرتقال واليوسفي، ويعلق أصابع الموز، أنا أحب حلوى الموز، ومنذ فترة أحضر لنا عم (شريف) بالدور الأرضي بعضًا من فاكهة البرتقال والموز، فأحببت طعم هذه الفاكهة خاصة الموز، كان هذا منذ فترة طويلة، أردت أن أتذكر طعمه، فمددت يدي، وأخذت إصبعًا من الموز المعلق، تقدم مني صاحب المتجر، رجل كبير بجلباب رمادي وعمة بنية، وقال:

- أليس من الأفضل أن تستأذن أولاً.

لحقتني أمي، وهي تقول:

- عفوًا يا معلم (سالم)، إنه طفل صغير.

فابتسم الرجل وقال:

- لا عليك يا ست أم (هدى).

ثم قطع إصبعًا آخر من الموز، وأعطاه لي، وهو يقول:

- ما اسمك؟

فقلت:

- (رضا).

فقال وهو يربت على كتفي:

- عاشت الأسامي يا (رضا).

عدت من السوق سعيدًا، فقد حصلت على إصبع من الموز، وتذكرت طعمه، أما الإصبع الآخر، فقد احتفظت به وأعطيته لـ(هدى) عندما عادت من المدرسة.

حتى جاء ذلك اليوم، هو أحد الأيام التي لن تمحى من ذاكرتي ما حييت، كنت ألعب بالكرة وحدي في مدخل البناية، فقد تركها لي (حمزة) قليلاً لألعب بها، وصعد هو لتناول طعام الغداء، جاء عم (فايز) من الخارج، كان يترنح يمينًا ويسارًا ويغني، داعب شعر رأسي، كما يفعل دائمًا، جلس على ركبتيه وأمسك ذراعي بيديه وهو يسأل:

- أين أبوك وأمك؟

رائحة فمه كريهة، لكنني أجبته:

- أمي ... في سوق ... الخضار ... أبي ... في ... لا أعرف ... بالخارج ... يقضي حاجة.

أمسك يدي وقال:

- تعال معي إلى شقتي حتى أعطيك الحلوى التي تحبها.

صعدت معه، دخلنا شقته، أدخلني غرفة بها فراش كبير وأجلسني عليه، أحضر حفنة من الحلوى أعطاها لي، كل الحلوى التي

أحبها موجودة، بطعم التفاح والموز والبرتقال، ولكن هناك واحدة بطعم التوت، أنا لا أحب طعم التوت، لن أعيدها إليه، سأعطيها لـ(هدى)، فهي تحب حلوى التوت، جلس بجواري على الفراش، ثم رفع جسدي وأجلسني على قدميه، أخذ يدغدغني، وأنا أضحك ... وأضحك.

رائحة فمه كريهة.

ولكن لا يهم، المهم أنه أعطاني الحلوى.

يدغدغني وأنا أضحك.

فجأة لف ذراعي خلف ظهري، ووقف خلفي، ألقاني على بطني فوق الفراش، ونزع سروالي ثم سروالي الداخلي، وضع يده على مؤخرتي وأخذ في تحسسها، وقال:

- من الجيد أنك نظيف ... أمك تعرف كيف تعتنى بك.

لم أفهم ماذا يعني، ولكنني شعرت بشيء غريب لم أشعر به سابقًا، شيئًا ما آلمني في مؤخرتي، هل يعطيني عم (فايز) محقنًا؟ ولكنني لم أمرض! لقد كنت أرتدي ملابسي طوال الوقت، ولم أقم بخلعها حتى يصيبني البرد كما حدث العام الماضي ... لماذا يأتي الألم ويذهب؟ لماذا يستمر كل هذا الوقت؟ بدأت أبكي، سقطت الحلوى من يدي على الفراش، بدأت في الصراخ، صفعني على وجهي، وكتم فمي، عضضت يده، فانهمر على وجهي بالصفعات، وعلى مؤخرة رأسي باللكمات، آلمتني، ولكن آلام مؤخرتي كانت أكبر، عضضت على

لساني حتى يذهب الألم، ولكنه ظل يأتي ويذهب، تساقطت من فمي الدماء، آلمني لساني، ولكن آلام مؤخرتي كانت أكبر، وضعت يدي في فمي، عضضت عليها حتى يذهب الألم، ولكنه ظل يأتي ويذهب، جرحت يدي، آلمتني، ولكن آلام مؤخرتي كانت أكبر، أخذ الألم يأتي ويذهب، ثم يزداد، ويزداد.

قام عم (فايز) من فوقي، وأعاد سروالي مكانه، وضع الحلوى في يدي، ثم قال لي بصوت صارم:

- لا تخبر أحدًا بما حدث، حتى لا أقطع عنك الحلوى، هل تفهم؟

صحبني إلى باب الشقة، كنت أبكي من الألم، فسألته وأنا أنصرف:

- هل ... أخبر أمي ... عم (فايز) ... أعطاني حلوى؟

فقال:

- نعم ... نعم يمكنك ذلك.

دفعني للخارج وأغلق الباب.

(4)

عادت (إجلال) من السوق محملة بحقائب بلاستيكية كثيرة لمشتريات سكان البناية، فوجدت (رضا) يقف في مدخل البناية يلتصق بالجدار بجوار باب الغرفة، كانت يداه تهتز في حركات دائرية، يلوك قطعة من الحلوى في فمه وعيناه مغرقتان بالدموع التي تبلل وجنتيه، يكرر دفع رأسه للخلف فتصطدم بالجدار، وضعت الحقائب من يدها، وسألته:

- لماذا تبكي؟

فظهرت ابتسامة حزينة على وجهه، وأخرج من جيبه بعض الحلوى، وهو يقول والدموع تنهمر من عينيه:

- انظري يا أمي ... عم (فايز) ... أعطاني الحلوى، تفاح وموز وبرتقال ... لكن لا أحب التوت ... سأعطيه لـ(هدى) ... هدى تحب حلوى التوت.

فابتسمت (إجلال)، وقالت:

- لماذا تبكي إذن؟ لديك الحلوى التي تحبها؟ كل هذا لأنك لا تحب حلوى التوت؟

فارقت الابتسامة الحزينة وجهه، بدأ يقطب حاجبيه، ازدادت رعشة يده، حركاتها الدائرية، أخذ يصدم رأسه من الخلف بالجدار مرة أخرى، حاوطته (إجلال) بيديها لتمنعه، احتضنته، فزعت عندما

رأت الجرح في يده وقطرات من الدماء تبلل سرواله من الخلف، فصرخت:

- ماذا حدث لك؟ هل جرحت؟

سحبته من يده إلى داخل الغرفة لترى مصدر الدماء.

تجمدت مقلتي عينيها، كادت أن تصرخ، ولكنها منعت نفسها خوفًا من الفضيحة، إنها تعرف جيدًا كيف يحدث جرح كهذا، إنها تعرف جيدًا هذا السائل اللزج الذي يقطر من فتحة شرج ابنها مختلطًا بدمائه، لطمت خديها بقوة، هزت (رضا) بعنف وهي تصرخ في وجهه:

- من فعل بك هذا؟ من فعل بك هذا؟

فأجاب:

- عم (فايز) ... محقنًا ... لكن قال ... لا تخبر أحدًا.

سقطت (إجلال) على الأرض، وهي تصرخ بصوت مكتوم، تبكي وتلطم خديها بصوت منخفض، أخذ (رضا) يربت على كتفها، وهو يقول:

- لا تخبريه ... لن يعطيني حلوى ... أنا أحب حلوى التفاح والموز والبرتقال ... لا أحب حلوى التوت... لماذا تبكين؟

عاد (صالح) من الخارج، فوجدها على نفس الحالة، لم تستطع سوى أن تخبره بما حدث.

كان الأمر فوق احتماله، أراد (صالح) أن يقف في مدخل البناية ويصرخ، جال بخاطره أن يصعد فيحطم باب شقة (فايز)، وينهال عليه ضربًا حتى يقتله، ثم يحرق الشقة بمن فيها وما فيها، أراد أن يشعل النيران في البناية كلها بجميع سكانها، أن يسرق السلاح الناري الخاص بـ(محمود الغريب)، ويطلق النار على كل أهل الحي والأحياء المجاورة، على كل سكان القاهرة الكبرى، مدينة الفرص الناضجة التي تنتظر الحصاد فيحصد أرواحهم، يطلق النار على الحياة بمن يعيشها، على الموت، على الفقر، على والده المتوفي الذي أنجب خمسة عشر من الأبناء أورثهم الجهل والفقر وعربة كارو مهترئة بحمار أعرج، على مهنته التي جعلت كل سكان البناية أسياده، وهو العبد الطائع الذليل ... ثم يطلق النار على رأسه.

ولكنه لا يملك أن يفعل أيًّا من ذلك، صب جام غضبه على (إجلال) التي تركت (رضا) وحده في الغرفة، وذهبت إلى السوق، عنفها بقوة، وبدأت يداه وقدماه تكيل لها الضربات والركلات حتى تكومت في ركن الغرفة، لم تبد أي ردة فعل أو تدافع عن نفسها، جزء منها كان يؤمن بأنها تستحق هذا العقاب، آلام جسدها كانت من الضآلة التي تنزوي معها كقطرة في بحر إحساسها بالذنب تجاه (رضا)، قهرها الظلم الواقع على ابنها حتى إنها استسلمت تمامًا لعقاب نفسها على يد زوجها.

انتهى (صالح) من إفراغ غضبه، أو ما بدا له أنه فعل، ولكن في حقيقة الأمر أن جسده الهزيل لم يسعفه ليكمل، فشعر بالتعب،

فخرج من الغرفة، وجلس على مقعده الخشبي بجوار باب البناية يلهث، ويتصبب عرقًا، ليداهمه السعال المحمل بطبقات من المخاط، لم يتوقف بكاء (إجلال) ونحيبها، وهي تنظف جراح (رضا) وتضمدها، ولكن ماذا يضمد جراح قلبها الذي ينزف؟ انهمرت الدموع من عينيها، أما (رضا)، فلم يفهم لماذا تبكي والدته، ولماذا ضربها والده، أخرج من جيبه قطعة من الحلوى وأعطاها لأمه أملاً في أن تكف عن البكاء، فالتقطتها منه (إجلال) وألقتها أرضًا، وهي تصرخ في وجهه:

- لا تأخذ حلوى من أحد مرة أخرى، ولا تذهب مع أحد في أي مكان لا أكون أنا فيه، هل تفهم؟

هرول (رضا) إلى قطعة الحلوى الملقاة على الأرض، وهو يقول:

- لماذا ... ألقيتها ... على الأرض؟ إنها حلوى ... الموز ... ألا تحبين ... حلوى الموز؟

لم تكترث (إجلال) لما يقول، أخذت تضمد جراحه الخارجة، وأيقنت أنه لا يعي حقيقة ما حدث له، وتمنت ألا يترك ذلك في نفسه أثرًا، وإن كان سيترك فيها غصة لن تزول، ألم جسدها الذي لا تشعر به لم يمح قلقها من أن يتورط (صالح) في فعل طائش - وإن كانت في داخلها تتمناه - يزج به إلى السجن، أو على الأقل يتسبب في قطع عيشه، لمحته بطرف عينها يفرغ ما تبقى من غضبه في دخان الشيشة، يسحب منها بعمق، ثم ينفث دخانها بقوة ويسعل، يسحب الدخان بعمق ويخرجه بقوة، ثم يسعل.

انتظرت بضع دقائق حتى يهدأ، ثم تقدمت منه بخطوات بطيئة، جلست بجواره، وهي تقول:

- أرجوك ... لا تتهور ... لا تفعل ما يجعلنا نندم.

فقال وهو ينفث الدخان:

- سألقنه درسًا قاسيًا ... سأضربه ... لا بل سأقتله.

فلطمت صدرها بقوة، وقالت:

- يا ويلنا إن فعلت ذلك، أنت تعرف أن حماه عضوٌ في مجلس الشعب، لسنا ندًا لهؤلاء الناس، إنهم مفترون.

- ماذا عساي أن أفعل؟

- فلنبلغ الشرطة، اذهب إلى القسم، وقم بعمل محضر له.

- ونفضح أنفسنا وابننا في أقسام الشرطة، ويظل طوال عمره منكس الرأس، لا لن أفعل.

- إن لم تفعل أنت، فسأفعلها أنا.

تعي (إجلال) أن (صالح) رغم جسده الهزيل إلا أنه يملك إرادة قوية، إذا أصر على الانتقام فسيفعل، وستكون العواقب وخيمة، إذن ففضيحة محتملة أهون بكثير من أن تراه مسجونًا أو مقتولاً.

إلحاحها المستمر ظنًا منها أنها تنقذ ما يمكن إنقاذه جعله يصطحب (رضا) إلى قسم الشرطة، وما بين العساكر والضباط، والعرض على وكيل النيابة والتحويل إلى المستشفى لإجراء الكشف

الطبي على (رضا)، عاد (صالح) في المساء محملاً بأحزان فاقت تلك التي ذهب بها، وعاد (رضا) بتجربة مريرة فاقت ما تعرض له على يد (فايز)، وعندما سألته زوجته عما حدث، سرد لها ما حدث بالتفصيل، واختتم كلامه بأن وكيل النيابة قد تعاطف مع (رضا) وسيصدر قرارًا باستدعاء (فايز) غدًا للتحقيق معه، ثم تمدد فوق الحصيرة وهو يتمتم:

- ما أصعب أن تكون فقيرًا في هذه المدينة.

أغمض عينيه، وراح في نوم عميق.

***

لم يعتد (فايز) الاستيقاظ مبكرًا، فهو لا يعمل، ويعيش على تأجير بضع متاجر ورثها عن والده، ولكن هذا اليوم أيقظه المُحضر في العاشرة صباحًا ليقوم بتسلميه استدعاء النيابة، فثارت ثائرته، ارتدى ملابسه بسرعة وتوجه إلى (صالح) الذي كان يجلس على مقعده الخشبي أمام البناية، فأمسكه من تلابيبه، وأخذ يهزه بقوة وهو يتوعده بتحويل حياته إلى جحيم، لثوانٍ حاول (صالح) أن يكون هادئًا، ولا يرد الإهانات والسباب التي يكيلها له (فايز)، ولكن الأخير تمادى حتى بدأت الناس تخرج من الشرفات والنوافذ لتشهد ما يحدث.

بدا (فايز) بجسده الضخم وكتفيه العريضين وبطنه الدائرية الكبيرة، وكأنه يداعب دميه صامته مسلوبة الإرادة.

التصق (رضا) بالجدار بجوار باب الغرفة وعيناه يملؤها الخوف، كان يوقن أن الأمر متعلق به، ولكنه لا يعلم لماذا، نظرة واحدة من (صالح) لولده المذعور كانت كفيلة بتحول ردة فعله، فأمسك بتلابيب (فايز) ودفعه بقوة، وبدأ يكيل له السباب بدوره، ولكن دون أن يفسر السبب، فضم (فايز) قبضته، وهوى بها على فك (صالح)، فما كان من (صالح) إلا أن أمسك بالشيشة الخاصة به وهوى بزجاجتها، وبكل قوته ليحطمها على رأس (فايز) الذي سقط أرضًا والدماء تسيل من شج في رأسه، تجمع سكان الشارع، وقاموا بالفصل بينهما وحمل بعضهم (فايز) إلى المشفى وسط وعيده لـ(صالح) بأنه سيجعله يقضي ما تبقى من عمره بالسجن.

عادت (إجلال) من السوق كعادتها لتجد المصيبة الجديدة، سيارة الشرطة تصطحب (صالح) إلى القسم.

عندما يكون حموك عضوًا بمجلس الشعب، فبالتأكيد لن تمر الساعة دون أن يتم القبض على من يعتدي عليك، ويتم إلقاؤه في الحجز بعد أن ينال ما يشتهي من ركلات وصفعات العساكر والمخبرين، القسم كله ينتفض لمجاملة صاحب الفخامة والحصانة.

تكوم (صالح) داخل الحجز والدماء تسيل من وجهه وكرامته تتسرب من روحه، و(إجلال) باتت تحتضن أبناءها، وتبكي في صمت، حدث أكثر مما كانت تخشاه، الآن (صالح) مسجون، والفضيحة قادمة لا محالة.

لم تعرف (إجلال) لمن تلجأ، فصعدت إلى الدور الرابع حيث شقة (محمود الغريب)، وطرقت الباب، ففتحت لها (أميرة) زوجته، فطلبت (إجلال) أن تتحدث مع زوجها الذي جاءها بوجه متجهم كعادته، وسألها بغلظة:

- ما الأمر؟

فقالت (إجلال):

- لقد ألقوا القبض على (صالح).

فقال:

- وهل تنتظرين شيئًا مختلفًا بعد أن اعتدى على (فايز).

- كان يدافع عن نفسه.

- بل زوجك بلطجي، ويستحق ما حدث له.

سكتت (إجلال) قليلاً، زوجها له ما يبرر موقفه بشكل كبير، ولكن هل تقوى على فضح ابنها، ابتلعت ريقها، ثم قالت:

- لقد أعـ ... لقد ضرب (فايز) ابننا (رضا)، وعندما قدم زوجي شكوى ضده قام هو بالاعتداء أولاً على (صالح).

فقال (محمود الغريب):

- وما دخلي أنا الآن؟

- حضرتك بالتأكيد تعرف شخصيات مهمة، أرجو منك التدخل للإفراج عن زوجي.

هز رأسه نفيًا، وقال:

- للأسف لا أستطيع.

هم بإغلاق الباب، ولكن (إجلال) وضعت يدها بقوة على الباب حتى لا يغلق، فصاح فيها:

- ماذا تفعلين؟ هل جننت.

أمالت رأسها إلى الأسفل، وقالت بصوت خفيض:

- لم يعتد عليه فقط ... لقد اغتصبه ... اغتصبه بوحشية.

تغير وجه (محمود الغريب)، بدت عليه علامات الدهشة والصدمة، أما زوجته التي كانت تقف بجوار الباب، فضربت صدرها بيدها مطلقة شهقة مكتومة، قال وقد تغيرت نبرة صوته:

- ماذا تقولين؟ كيف؟

لم ترد (إجلال) وإنما بدا على وجهها الندم، شعرت أنها تسرعت في البوح بما حدث، فاستطرد (محمود الغريب):

- أعلم أنه رجل سكير، ولكن أن يصل الأمر إلى هذا الحد!!

فقالت (إجلال):

- أرجوك يا سيدي أن تقوم بالاتصال بأي شخص ليقوموا بإخراجه من القسم.

- كيف يا أم (هدى)؟ أنا لا أمتلك قسم الشرطة.

- ولكنك تمتلك سلاحًا ناريًا، إما أن تكون ضابطًا أو شخصية مهمة يملك اتصالات بأشخاص ذي مكانة.

فابتسم (محمود الغريب) قائلاً:

- هذا السلاح ليس ملكي، أنا أعمل في شركة حراسات خاصة، وهذا السلاح عهدة.

- ولكنهم يقولون ...

فقاطعها قائلاً:

- ليس كل ما يقول الناس صحيحًا ... على كل حال أنا أعتذر ... لا أستطيع فعل شيء في هذا الأمر.

ثم أغلق الباب.

***

قضى (صالح) يومين في الحجز بلا تحقيق، بلا طعام، حيث إنهم منعوا عنه كسرات الخبز والجبن التي كانت تحضرهما له زوجته، وفي صباح اليوم الثالث وجد نفسه يقف أمام المحامي الخاص بـ(فايز) في غرفة رئيس مباحث القسم، قال له المحامي بلهجة آمرة:

- اسمع يا هذا، سوف تتنازل عن البلاغ الذي قدمته ضد الأستاذ (فايز) في مقابل أن نتصالح في قضية الاعتداء عليه.

فقال (صالح) والكلمات تخرج من فمه بصعوبة بالغة:

- كيف هذا؟ كيف أتنازل عن حقي؟ كيف أتنازل عن عرض ولدي الذي هتكه هذا السكير؟

قاطعه المحامي:

- تقصد ولدك العبيط؟

اعتدل في جلسته، وأمسك فنجان القهوة الموضوع أمامه، ارتشف منه رشفة عميقة، ثم أعاده فوق قاعدته محدثًا صوتًا قويًا اخترق أذن (صالح) كطبول الحرب، ثم قال بلهجة ساخرة، دون أن ينظر إليه:

- هذه قضية ستحسم من أول جلسة، ولدك متخلف، فاقد للأهلية والتمييز، والواقعة لا يوجد عليها شهود، أما اعتداؤك على الأستاذ (فايز) فالشهود كثيرون، والتقرير الطبي يفيد باحتياجه إلى أكثر من واحد وعشرين يومًا للعلاج، إنها قضية مضمونة أيضًا، لن تقل عقوبتك فيها عن ثلاث سنوات.

نظر إلى (صالح)، وتغيرت نبرته من الحدة إلى الهدوء، وهو يقول:

- نحن فقط لا نريد الفضائح، نريد احتواء الموقف، غدًا سيتم عرضك على النيابة، وسأكون في انتظارك، فقط تنازل عن البلاغ، وسأخبرهم برغبة موكلي في التصالح، وتنتهي المشكلة وتنال حريتك.

أنهى المحامي ما تبقى من قهوته، وصافح بحرارة رئيس المباحث الذي كان يتابع الموقف من خلف مكتبه دون تدخل، وبمجرد خروج المحامي من الغرفة نظر رئيس المباحث لـ(صالح)، وقال:

- أنصحك أن تفعل ما قاله لك، أنت رجل غلبان يا (صالح)، لست ندًا لهم، أنت حتى لا تستطيع توكيل محام للدفاع عنك.

عاد (صالح) إلى زنزانته بصفقة خاسرة من مكتب رئيس المباحث، كرامته مقابل حريته، منهك من الإعياء، مشلول التفكير، يتضور جوعًا.

لم تمر سوى دقائق حتى قاده أحد العساكر إلى غرفة خالية ووضع أمامه لفافة من الطعام تحتوي على كمية لا بأس بها من اللحم المشوي والكفتة، وأخبره أن محامي (فايز) هو من أحضرها له، نظر (صالح) إلى الطعام في وهن، بدا له وكأن الطعام هو قلب ولده ودماؤه، جرحه الذي ينزف، أمسك قطعة اللحم، ومع أول لقمة تدخل فمه أيقن أنه لا يملك سوى أن يأكل، حتى وإن كان هذا اللحم هو لحم ابنه (رضا).

***

في طريق عودته من صلاة المغرب بمسجد "أبو الفضل" جلس الحاج (رأفت) بجوار (صالح) على المقعد الخشبي أمام مدخل البناية، كانت هذه هي المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك، لهذا؛ تنبأ (صالح) بما يجول في خاطر الحاج (رأفت) الذي بدأ بالحديث مباشرة قائلاً:

- من غير المقبول أن يعتدي البواب على أحد السكان، لهذا؛ يعز علي أن أخبرك بأنه لا عيش لك في هذه البناية بعد الآن، أمامك حتى نهاية الشهر لحمل متاعك والرحيل.

فقال (صالح):

- الرحيل إلى أين؟ ليس لي مكان آخر سوى هذا.

- ارجع إلى قريتك يا ولدي، عد إلى مهنتك الأولى.

- لم يعد لي قرية، ومهنتي السابقة انتهت، لم يتبق منها إلا جريد منخور.

- كيف سيأتمنك السكان بعد اعتدائك على أحدهم؟ كيف سَأَأْتَمِنُكَ أنا على نفسي؟

لم يكن أمام (صالح) أي خيار، إلا أن يخبر الحاج (رأفت) بكل ما حدث، منذ صعقته (إجلال) بالخبر، وحتى لقائه بمحامي (فايز).

بدت علامات الذهول على وجه (رأفت)، لم يعهد (صالح) كاذبًا، يعلم أن (فايز) سكير، ولكن أن يصل به الأمر إلى هذا الحد من

الفجور، كان هذا فوق قدرته على التصديق، قام (صالح) باستدعاء (رضا) ليقص عليه ما حدث، والذي نظر إلى الحاج (رأفت)، وقال:

- عم (فايز)... لف ذراعي هكذا ... خلع سروالي ... أعطاني محقنًا في مؤخرتي ... وأوجعني ... واستمر كثيرًا ... أنا لا أحب عم (فايز) ... هل تعطيني أنت حلوى الموز بدلاً منه؟

لأول مرة يحاول (رأفت) أن يربت على كتف (رضا)، ولكن الأخير تراجع بفزع، فابتسم الأول، وقال له:

- نعم يا (رضا)، سأجلب لك حلوى الموز.

ثم أسند رأسه على يديه متكئًا على عصاه محدقًا في الأرض، ولعدة دقائق ظل ساكنًا كالتمثال.

التفت بعدها إلى (صالح) وسأله:

- وهل تنازلت عن المحضر؟

فأجاب:

- وهل أملك خيارًا غير ذلك؟

هز (رأفت) رأسه في أسى قائلاً:

- لقد عرفت والده، كان رجلاً لطيفًا طيبًا، أراد أن يهب بعض أملاكه لأعمال الخير، ولكن (فايز) رفع عليه قضية حجر وكسبها، ثم ألقاه في إحدى دور المسنين حتى توفي.

أعاد إراحة رأسه فوق عصاه، وقال بشرود:

- مآل الإنسان سيرة ومصير.

هز (صالح) رأسه في عدم فهم، فأكمل (رأفت):

- السيرة هي ما تتركه في الدنيا بعد رحيلك، إما تصحبك دعوات الناس لك أو لعناتهم عليك ... أما المصير، فهو وجهتان لا ثالث لهما، إما الجنة أو النار.

فقال (صالح):

- ومصيرنا في الدنيا؟ نحن الفقراء لا نعرفه، فنحن لا نتمنى لأن أمانينا ستظل أماني، ولن تصبح حقيقة، لا نحلم؛ لأن أحلامنا مهما كانت بسيطة لن تتحقق، لقد تعودنا على ذلك ونعيش به.

ابتسم (رأفت) وقال:

- الله يعطي البرد على قدر الغطاء.

فقال (صالح):

- تقصد يعطي الغطاء على قدر البرد.

فقال (رأفت):

- إن قدرة الله أكبر من ذلك بكثير يا ولدي ... إنه يعطيك إحساسك بالبرد على قدر ما أعطاك من غطاء، يعطيك إحساسك بالجوع على قدر ما منحك من طعام، يعطيك حاجتك على قدر رزقك ... احتفظ بعملك ومكانك يا (صالح).

اتكأ على عصاه، وقال وهو ينصرف نحو شقته:

- وليفعل الله ما يريد.

***

زار الحاج (رأفت) (فايز) في منزله، جلس على أول مقعد أمامه، وبدأ الأول في الحديث دون مقدمات:

- أعلم ما فعلت، ولست هنا لأحاسبك على ما اقترفت في حق هذا الطفل المسكين الذي لا يملك حولاً ولا قوة، ولا أملك عقابك على ما فعلت بوالده المغلوب على أمره، ولكنني هنا لأخبرك بأن (صالح) لن يترك البناية، بل وأحذرك من الاحتكاك به مرة أخرى، دعه وشأنه.

فقال (فايز):

- لن أتحمل أن أراه وولده كل يوم.

- هل هذا شعورٌ بالذنب أم الغرور.

- كيف لهذا الجاهل الحقير أن يمد يده علي؟!

- إذن هذا كبر، قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم: "لن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"، أعلم أنك لا تكترث بالجنة أو بالنار، ولكنني أريد أن أسألك، ألهذا الحد تكره الناس؟ أم تكره نفسك؟

أشاح (فايز) بوجهه قائلاً:

- أنا لا أكره أحدًا.

فقال (رأفت) بأسى:

- بل تفعل ... حتى وإن ظننت أنك لا تكره أحدًا، فإن قلبك لا يعرف الحب ... حتى الأطفال، لا تعرف كيف تحبهم.

انفجر (فايز) قائلاً بانفعال:

- بالفعل، أنا لا أحب الأطفال، بل أكرههم، أكره كل طفل في هذا العالم، فهم كائنات مزعجة، أنانية، متطلبة، يتعب الآباء في تربيتهم، وتعليمهم وينفقون عليهم كل ما يملكون، وعندما تتحول هذه الأطفال إلى مرحلة المراهقة يصبحون أكثر إزعاجًا، يصبحون متمردين رافضين لواقعهم، كارهين لحياتهم، ناقمين على أهاليهم، وعندما يكبرون يجحدون، يتركون آباءهم وأمهاتهم لعجزهم، أو يلقونهم في دور للمسنين، وعندما يموت أحد الآباء، لا يهم سوى ميراثه، كم ترك من الأموال والأملاك، يترحمون عليه فقط إذا ترك الكثير، ويسبونه ويلعنونه ويتمنون له الجحيم إذا لم يترك سوى القليل.

فرد (رأفت) بانفعال:

- ليس كل الناس مثلك يا (فايز)، يحجرون على آبائهم، ثم يلقونهم في دور المسنين حتى يموتوا قهرًا وكمدًا.

تنفس (رأفت) بعمق حتى يهدأ، ثم استطرد:

- على كل حال، هذا شأنك أنت، أما شأني أن تكف يدك عن (صالح) وعائلته.

اتكأ على عصاه، وقال وهو يغادر:

- لقد بلغتك الرسالة ... وليفعل الله ما يريد.

ثم تمتم بصوت لم يسمعه (فايز):

- لهذا؛ لم يرزقك الله بذرية من صلبك ... إن لله حكمته.

***

زيارة أسبوعية، تحولت لزيارة شهرية، ولكنها لم تنقطع لمدة ثلاث سنوات، زيارات (إجلال) المتكررة لإدارة شمال القاهرة التعليمية للسؤال عن مصير الطلب الخاص بإلحاق (رضا) بالمدرسة جعلت الموظفين يتعاطفون معها، حتى إنها كونت بعض الصداقات بينها وبين الموظفات؛ مما جعلهن يُقدمن على فعل لم يكنَّ لِيَفْعَلْنَهُ دون أن تفتح الأدراج لاستقبال الأموال خلسة، لقد قاموا بإرسال مندوب مخصوص من الإدارة التعليمية للوزارة لاستعجال الموافقة على الطلب، وأخيرًا نالت (إجلال) مكافأة الصبر والدأب، جاءت الموافقة من الوزارة، بل وتم إرسالها مع المندوب إلى ناظر المدرسة الابتدائية.

سيلتحق (رضا) بالمدرسة مع بداية السنة الدراسية القادمة.

عادت (إجلال) بسعادة غامرة، حاملة لواء الانتصار في أولى المعارك، انتظارًا لخوض معارك جديدة.

(5)

اليوم هو الأول لي بالمدرسة، كعادتي استيقظت في الصباح الباكر مع آذان الفجر، أحضرت الفول والبليلة من عم (يوسف)، وأخبرته أنني سأذهب اليوم إلى المدرسة، ارتديت الملابس التي أحضرتها أمي من السيدة (ميرفت) في الدور الأول، مررنا بكشك عم (حامد) الذي حيانا وأعطاني مصاصة، رفضت أمي أن أتناولها مباشرة، وضعتها في حقيبتي التي أحضرتها من السيدة (مديحة) بالدور الثاني، وقالت لي بأن أتناولها بعد أن أنتهي من شطائر الجبنة بالطماطم التي أعددتها لي، وضعت أيضًا كراسة جديدة وقلمًا أشترته لي من متجر عم (عوض) بشارع "الحايس" بعد صراع كبير وسط الشباب الذين يتجمعون دائمًا حول متجر الخردوات خاصة مع بداية العام الدراسي، قطعنا شارع "شبرا" المزدحم إلى الشارع الضيق الذي يحوي مدخل ثلاث مدارس، الأمهات والآباء كثيرون، والطلبة أكثر، لا أحب الازدحام، بدأت يدي في حركاتها الدائرية حتى انتزع التوتر من داخلي، على باب المدرسة استقبلنا عم (عبد البر) بجلبابه البني وعمامته البيضاء سائلاً أمي:

- هل قبلوه؟

فقالت أمي:

- نعم، يمكنك أن تسأل في الإدارة.

أشار لنا بالانتظار في الخارج، بعد قليل جاءت سيدة معها عدة أوراق، نظرت فيها، وقالت اسمي كاملاً (رضا صالح عبد الغفار)، ثم أشارت لسيدة أخرى لتصحبني إلى داخل المدرسة، والتي أمسكت يدي بقوة وسحبتني للفصل، كانت تعتصر يدي حتى شعرت أن أصابعي ستتحطم تحت قبضتها، أثناء مرورنا بالفناء تمتمت ببعض الكلمات، سمعت منها:

- ينقصنا ... متخلفين ... ألا يكفيهم ما نحن فيه ... مرتبات زهيدة ... نمسح مؤخرات.

اعتدت على فترات غياب أمي، سواء عندما تصعد إلى إحدى الشقق لتنظيفها، أو عندما تذهب إلى السوق لإحضار الخضروات، ولكن هذه المرة كان الغياب مؤلمًا، غريبًا، شعورًا جديدًا لم أعهده سابقًا، شعرت بالوحدة.

أجلستني السيدة في أحد الفصول، طاولات كثيرة متراصة في صفوف، هناك طلبة كثيرون، وجميعهم أقصر مني، قالت لي وهي تجلسني في آخر طاولة:

- أنت طويل، سترى السبورة من هنا.

رمقني الطلبة بنظرات غريبة، ربما لأنني أكبر منهم سنًا، دخلت المعلمة، تحدثت بكلمات سريعة لتعرف عن نفسها، ثم بدأت تشير إلى كل طالب وتسأله:

- ما اسمك؟

فيجيب الطالب، سؤال أعرف إجابته، انتظرت أن تشير إلي، ولكنها لم تفعل، سألت الطالب الذي يجلس أمامي، والطالب الذي يجلس خلفي، سألت كلَّ من بالفصل، ما عداي أنا، لقد نسيت، بالتأكيد نسيت، فتطوعت أنا وقلت:

- رضا صالح عبد الغفار إبراهيم.

كان صوتي مرتفعًا؛ لأنني أردتها أن تسمعه، حيث كانت تتحدث إلى الطلبة، فسكتت، ثم نظرت لي نظرة طويلة، ابتسمت وأومأت برأسها، وهي تقول:

- مرحبًا يا (رضا).

أدارت وجهها عني، عاودت الحديث لباقي الطلبة، وتجاهلتني.

***

فيما يشبه الاقتحام دخلت الأستاذة (نهى) غرفة مدير المدرسة الذي انهمك هو وبعض المدرسين في ورقة بيضاء كبيرة يخطون عليها جداول الحصص، نظر لها نظرة خاطفة، وهو يقول:

- خير يا أستاذة (نهى)؟

فقالت بعصبية:

- تضعون في فصلي طالبًا منغوليًا؟ ألا يكفينا ما نحن فيه؟

فابتسم الرجل ابتسامة ساخرة، وهو ينظر لأحد المدرسين بجواره قائلاً:

- ألم أقل لك؟

عاود النظر في الورقة أمامه، وهو يقول:

- ليس لنا من الأمر شيء، لقد فرضته علينا الوزارة، ولا نستطيع الرفض.

فقالت:

- لماذا تضعونه في فصلي إذن؟ ضعوه في فصل الأستاذة (ماجدة)، فهي أكثر مني خبرة، وتستطيع التعامل مع حالة كهذه.

فرد مدير المدرسة، دون أن يرفع عينيه:

- الأستاذة (ماجدة) فصلها ممتلئ، لقد تم تسكين الطلبة بالفعل، ولا يمكننا إعادة التوزيع.

ثم نظر لها، وقال بحزم:

- تعاملي مع الوضع.

فسألت:

- كيف؟ نحن لسنا مؤهلين للتعامل مع الطلبة المتخلفين عقليًا.

سمعت صوتًا من خلفها يقول:

- تكلمي ببطء وبكلمات واضحة حتى يفهم ما تقولين.

التفتت، فإذا به الأستاذ (عادل راغب)، مدرس اللغة العربية، المدرس الذي يعشقه الطلبة، ويمقته زملاؤه المدرسون، والذي استطرد:

- لا تعبسي في وجهه، لا تعنفيه، لا تتجاهليه، فقط عامليه كأحد الطلبة ضعيفي الاستقبال بطيئي الفهم، امنحيه بعض الاهتمام والتوجيه الخاص.

تمتمت (نهى) بصوت مرتفع سمعه كل من بالغرفة:

- نترك عملنا لندلل طفلاً متخلفًا.

عقد (عادل) حاجبيه وقال بغضب:

- من المفترض أنك مدرسة رياض أطفال، ومن أساسيات عملك الاهتمام بهم، بل وتدليلهم.

ثم تمتم هو الآخر بصوت مرتفع:

- لا عجب أن طلبة رياض الأطفال لا يكفون عن الصراخ يوميًا والتشبث بأهلهم عند إجبارهم على دخول المدرسة صباحًا، كأنهم مساجين أبرياء يساقون إلى المقصلة.

فجأة اقتحم الغرفة أحد الطلبة موجهًا حديثه لمدير المدرسة:

- يا حضرة الناظر، الولد العبيط يضرب طلبة من الصف الخامس، وسيقتل أحدهم.

أشار الناظر إلى وكيل المدرسة الذي كان يقف بجواره، فانطلق مسرعًا نحو فصل رياض الأطفال بالدور الأول، سبقه (عادل) الذي اقتحم الفصل ليجد (رضا) يجثو فوق أحد الطلبة، ويقبض بيده على عنق طالب آخر والذي بدأ وجهه في التحول إلى اللون الأزرق، فك (عادل) قبضة (رضا) بصعوبة قبل أن يجهز على الطالب، ورفعه من فوق الآخر، بدأ وكيل المدرسة في الصياح، وتوعد الطلبة المشاغبين بالعقاب، فأشار له (عادل) بأنه سيتولى الأمر، وضع يده على كتف (رضا) الذي انتفض مبتعدًا عنه، كان يلهث بقوة ولسانه يتدلى خارج فمه، وجسده يرتجف كأن الكهرباء صعقته، حاول (عادل) مرة أخرى أن يربت على كتفه، ولكنه انتفض مجددًا ودفع يده بقوة، فقال (عادل):

- لا تخف ... اجلس ... اجلس ... ما اسمك؟

أجاب (رضا) بصوت مرتفع وكلمات متقطعة:

- رضا ... صالح ... عبد الغفار ... إبراهيم.

فابتسم (عادل)، وأجلسه على إحدى الطاولات بالفصل وجلس بجواره، انتظر قليلاً حتى يهدأ، ثم سأله:

- لمَ فعلت ذلك يا (رضا)؟ لمَ ضربتهم؟

فقال (رضا):

- لقد ألقوا عليّ أوراقًا مكومة ... وحاول أحدهم اختطاف شطيرتي من الجبن والطماطم ... وعندما منعته من ذلك، تمزقت الشطيرة، وسقطت على الأرض، وتلوثت بالتراب.

- هل هذا مبررًا لتضربهم بهذه القوة؟ لقد كدت أن تقتل الولد.

- رأيت فيهم (باهر) وأصدقاءه الأشرار.

- ومن هم (باهر) وأصدقاؤه الأشرار؟

- يسكنون في الشارع المجاور لنا ... كلما رأوني يصفونني بالعبيط، ويسخرون مني، يقذفونني بالحجارة، ويضربونني.

هز (عادل) رأسه في تفهم، وقال:

- ولكنهم ليسوا (باهر) وأصدقاءَه الأشرار، إنهم زملاؤك في المدرسة.

- ولكن أختي (هدى) قالت لي: "لا تدع أحدًا يسخر منك أو يؤذيك، إذا تطاول عليك أحد يجب أن تدافع عن نفسك، وتضربه إذا لزم الأمر".

- هذا الكلام يطبق في الشارع، أما هنا، فنحن في المدرسة، إذا تطاول عليك أحد لا تعتدِ عليه، ولكن أخبر معلمتك.

- ولكنه حاول اختطاف شطيرتي.

- أخبر معلمة الفصل، وهي ستعيد إليك حقك.

- وإذا اختطفها مني والتهمها، هل كانت ستخرجها من بطنه وتعيدها إلي كما كانت؟

ضحك (عادل) ضحكة مجلجلة، حاول أن يداعب شعر (رضا)، ولكن الأخير انتفض وأبعد رأسه للخلف، وهو يدفع يد (عادل) الذي قال:

- لا تخف كنت أريد أن أربت على رأسك.

فقال (رضا):

- لقد قالت لي أمي ألا أدع أحد أكبر مني يلمسني.

- ولكنني معلمك.

- كذلك كان عم (فايز) جارنا.

فسأله (عادل):

- من عم (فايز)؟ وماذا فعل؟

حدق (رضا) في جدار الفصل بشرود، وبدأت يداه تتحرك لا إراديًا بشكل دائري، وقال:

- أريد العودة إلى المنزل ... لا أريد المدرسة.

فقال (عادل):

- لا تخف يا (رضا)، اهدأ وعُد إلى مكانك في الفصل، وسأخبر الأستاذة (نهى) أن تهتم بك، ولا تدع الطلبة تسخر منك أو تؤذيك مرة أخرى.

- لا ... أريد العودة إلى المنزل ... لا أريد المدرسة.

أخذ يكررها كثيرًا، فلم يجدوا حلاً أمام إصراره سوى إحضار (هدى) من فصلها بالصف الثالث الابتدائي، حيث هدأ (رضا) بمجرد رؤيتها.

أخرجت (هدى) من حقيبتها شطيرة الجبن بالطماطم وأعطتها له، أخذ يأكلها، وهو يحدق في جدار الفصل بعينين تملأهما الصدمة والخذلان.

خذلته المدرسة، تهاوت الصورة المثالية التي تكونت في عقله عنها، الطلاب الذين يحملون حقائبهم ويخرجون صباحًا ينتظرون حافلاتهم بجوار عم (يوسف)، (سارة) الجميلة وهي تخرج من المنزل تحتضن كتبها فوق صدرها، وعلى وجهها ابتسامة الملائكة، نظر حوله ليبحث عن هؤلاء، ولكنه لم يجدهم، لم يجد في وجوههم سوى (باهر) وأصدقائه الأشرار.

***

كانت سعادة (إجلال) لا توصف وهي تقف على باب المدرسة تشاهد (هدى) تقبض على يد أخيها وهما يقطعان حوش المدرسة

وسط عشرات الطلبة قادمين نحوها، انحنت على (رضا) تقبله، وهي تسأل:

- كيف كان يومك الأول بالمدرسة؟

فأجاب (رضا) بغضب:

- لن أعود إليها مرة أخرى ... لا أحب المدرسة.

فقالت:

- لماذا؟ ماذا حدث؟

عندما سمعت صوتًا من خلفه يقول:

- أنت والدة (رضا)؟

رفعت رأسها لتجد شابًا في أواخر العقد الثالث من العمر، يرتدي ملابس تدل على الطبقة المتوسطة التي ينتمي إليها، والذي عرف نفسه قائلاً:

- أنا الأستاذ (عادل راغب) مدرس اللغة العربية.

أومأت برأسها إيجابًا، فأكمل:

- (رضا) ولد جميل، وأعتقد أنه يفهم بشكل جيد، ويعي ما حوله، ولكنه حساس بدرجة كبيرة، مشاعره جامحة، ولا يستطيع التحكم بها أو كبحها، بالقطع هذه هي سمات كل الأطفال، ولكن مع (رضا) الأمر متضاعف، بالتأكيد تعلمين أنه مختلف، ويحتاج معاملة خاصة وتأهيلاً.

لم تفهم (إجلال) ماذا يعني، ولكنها أومأت برأسها مرة أخرى، وهي تقول:

- نحن نعامله جيدًا.

فقال:

- أعني أنه يحتاج إلى شخص متخصص في تأهيل حالة كهذه، أخصائي تأهيل.

- تقصد درسًا خصوصيًا؟ كم يتكلف أمر كهذا؟

- لا أقصد درسًا خصوصيًا بالمعنى المعروف، وإنما شخصًا مؤهلاً لتدريبه، يقوم بمساعدته وإرشاده للتعامل مع مختلف المواقف والأحداث التي سوف تواجهه في حياته، وتعليمه بالطريقة التي تمكنه من استيعاب المناهج الدراسية، لقد تعرض (رضا) اليوم لموقف جعله يكره المدرسة ويبغض زملاءه، وللأسف كان معه الحق في ذلك، أعتقد أنك ستواجهين صعوبة كبيرة في إقناعه أن يأتي إلى المدرسة غدًا، في مثل هذه المواقف يكون دور هذا الأخصائي مهمًا.

عاودت (إجلال) سؤالها عن التكلفة، فرد (عادل):

- لا أعرف تحديدًا، ولكنني سأبحث لك عن شخص متخصص وأسأله، وعندما أحصل على إجابة سأخبرك.

انطفأت فرحة (إجلال)، كانت تظن أن المعركة الأكبر انتهت بدخول (رضا) المدرسة، ولكنها اكتشفت أن الطريق لا يزال طويلاً وشاقًا، والمعارك كلها كبرى، وأصعبها لم يبدأ بعد.

(6)

عدت إلى المنزل بعد أول أيامي بالمدرسة، عدت بعد أن فهمت لماذا يدخل الطلبة المدرسة بملابس نظيفة ووجوه عابسة، ويخرجون منها بملابس متسخة ممزقة ووجوه سعيدة، الطلبة جميعهم (باهر)، شعرت بآلام جانبي وطعم الدم في فمي عندما ركلني هو وأصدقاؤه الأشرار.

المدرسون جميعهم عم (فايز)، ولكن ليس جميعهم، أستاذ (عادل) مختلف، إنه شخص لطيف، ولكن عم (فايز) أيضًا كان شخصًا لطيفًا، كان يعطيني الحلوى كلما رآني، ويربت على رأسي، لن أذهب لهذه المدرسة مرة أخرى، لن أذهب لأي مدرسة بعد الآن.

انتظرت كثيرًا حتى ينزل (حمزة) بالكرة لنلعب بها في مدخل البناية، كما نفعل كل يوم، ولكنه لم يأت، صعدت إلى الدور الرابع وطرقت الباب، فتحت لي والدته، وأخبرتني أن الدراسة قد بدأت، وأنه لن يستطيع اللعب معي إلا يوم الإجازة فقط، يوم الجمعة، لم أكن أمتلك كرة فطلبت من والدي أن يشتري لي واحدة، ولكنه لم يفعل، فجلست حزينًا على الدرج في مدخل البناية أتابع (هدى) وهي تقلد حركات رقص الباليه التي تشاهدها في التلفاز، ترفع إحدى قدميْها عن الأرض، وتقف على أطراف أصابع القدم الأخرى، ترفع يديها في الهواء، وتحاول الدوران فتسقط، تقف وتنفض ملابسها، وتحاول مرة أخرى، ومرة أخرى، حتى نجحت في إتمام دورة كاملة،

فقفزت من الفرحة وصفقت، وجدت نفسي أصفق لها بدوري، فقالت لي:

- هل رأيت يا (رضا)؟ أنا بارعة في رقص الباليه، يومًا ما سأصبح باليرينا وسأجوب العالم وأقدم عروضًا على أكبر المسارح، أتعلم أن أفضل راقصات الباليه من روسيا، يومًا ما سأتفوق عليهم جميعًا، وسأقدم عروض "بحيرة البجع" و"كسارة البندق"، وأكون أنا البريما، هكذا يطلقون على الباليرينا الرئيسية التي تقوم بأدوار البطولة.

صفقت لها مرة أخرى، وسألتها:

- وهل ستصحبينني معك؟

فجلست بجواري، وحاوطتني بذراعيها، وهي تقول:

- بالقطع سأفعل ... أنت ستكون دائمًا في أول الصفوف، من سيقوم بتشجيعي غيرك؟

وجدتني أجلس في إحدى القاعات الواسعة، يجلس حولي أشخاص كثيرون يرتدون الحُلات السوداء، تتعلق عيونهم جميعًا بخشبة المسرح الكبير، و(هدى) تقف في منتصفه تمامًا، تتركز الإضاءة عليها وهي تقف على أطراف أصابع قدم واحدة، ترفع يديها وتدور حول نفسها، فيتطاير طرف ثوبها الأبيض في الهواء، تشع نورًا كالملائكة، يدور حولها فتيات كثيرات بملابس ملونة منفوشة من منطقة الخصر، يلوحون بأيديهم ويقفزون في الهواء كأنهم فراشات تحوم حول وردة بيضاء.

سألتها:

- ألا يوجد راقصو باليه من الرجال؟

- نعم يوجد.

- أريد أن أصبح راقص باليه مثلك، لا أريد أن أذهب إلى المدرسة.

قالت وهي تبتسم:

- عندما ألتحق بمدرسة الباليه سآخذك معي.

ثم قامت لتعاود محاولة الدوران حول نفسها مرة أخرى.

هذه المرة رأيتني أقف على خشبة المسرح وسط الفتيات، تمسك (هدى) يدي وتدور حولي وتقفز معهم في الهواء، عيون كثيرة تحدق بنا داخل القاعة، رجال جالسون بحُلاتهم السوداء، لم أتبين وجوههم في الظلام، الإضاءة كلها مسلطة علينا، رفعت (هدى) من خصرها في الهواء، ودرت بها حول نفسي، أخذت أدور وأدور، انفجرت القاعة بالتصفيق، خفتت الإضاءة من على المسرح، وأضاءت في الصالة، جميع العيون معلقة علينا، بدأت أتبين وجوه الحاضرين، كلهم متطابقون، نفس الوجه والملامح، جميعهم شخص واحد، جميعهم عم (فايز).

انتفضت من النوم مفزوعًا، لقد بزغ النهار، لأول مرة منذ مدة كبيرة لا أستيقظ على أذان الفجر، الآنيتان موضوعتان مكانهما، في انتظار أن ألتقطهما وأتوجه إلى عم (يوسف)، ولكنني لن أفعل، لا

أريد مشاهدة الطلبة البائسين الذين ينتظرون الذهاب إلى مدارسهم، سأفتقد الإفطار، سأفتقد البليلة، كما فقدت شطيرتي بالأمس.

لن أذهب إلى المدرسة مرة أخرى.

***

أوقفت (نور) سيارتها الصغيرة على بعد أمتار قليلة من البناية وترجلت منها، لم يكن هناك أحد بالمدخل، نظرت حولها لثوانٍ، ثم طرقت باب الغرفة، فجاءها صوت من الداخل:

- من؟

فقالت:

- أنا أبحث عن (رضا صالح).

- أنا (رضا).

- أين والداك يا (رضا)؟ أريد التحدث معهما.

- ليسا هنا.

- هل أنت وحدك؟

- نعم.

- هل من الممكن أن تفتح لي الباب، أريد أن أراك؟

- لا ... قالت لي والدتي ألا أفتح الباب لأحد.

- متى سيأتيان؟

- لا أعرف.

- حسنًا، سأنتظرهما.

عادت (إجلال) من المخبز محملة بأكياس الخبز الذي تبتاعه لنصف سكان البناية تقريبًا، تلقي نظرة من الشك على تلك الفتاة الممتلئة قليلاً، والتي ترتدي ملابس بسيطة، وتجلس على المقعد الخشبي أمام البناية، تدون من خلف نظارتها الطبية التي سقطت على طرف أنفها بعض الكلمات في دفتر صغير بين أصابعها، لتضع الأولى ما في يديها، وتتوجه نحوها بهدوء متسائلة:

- أتنتظرين أحدًا؟

رفعت (نور) رأسها، وعدلت من وضع نظارتها الطبية، وهي تقول:

- أنتظر والد (رضا).

فقالت (إجلال):

- أنا والدته، أية خدمة؟

مدت (نور) يدها لتصافح (إجلال) وهي تقول:

- أنا (نور شوقي)، معيدة في كلية التربية جامعة القاهرة، وأقوم بإعداد رسالة ماجستير بمعهد الدراسات والبحوث التربوية، أخبرني أستاذ (عادل راغب) عن حالة (رضا)، وقد جئت هنا لدراسة ... عفوًا ... لمساعدته وتأهيله ... ومساعدتكم في التعامل معه.

طرحت (إجلال) أول سؤال جال في خاطرها:

- وكم ستكون تكلفة ذلك؟

ابتسمت (نور)، وقالت:

- أنا أحضر رسالة ماجستر عن "تأثير البيئة الاجتماعية على المصابين بالتأخر العقلي"، ولهذا؛ لن أتقاضى منكم أي مبالغ، بشرط أن تسمحوا لي بوضع تجربة (رضا) ضمن رسالة الماجستير.

كان هذا الكلام أكبر من قدرة (إجلال) على الاستيعاب، فطلبت من (نور) الانتظار حتى يأتي (صالح) للبت في هذا الأمر.

لم يكن من الصعب إقناع (صالح)، لا يهم أن تقوم (نور) بدراسة حالتهم الاجتماعية أو الدخول في تفاصيل حياتهم اليومية، بل وتدوين كل كبيرة وصغيرة في دفتر ملاحظاتها، بقدر ما يهمه أن يصبح (رضا) شخصًا طبيعيًا على قدر المستطاع، رجلاً يمكنه الاعتماد عليه ومساعدته في قضاء الطلبات اليومية للسكان.

منذ اللقاء الأول بينهما، أيقنت (نور) بأن (رضا) فاقد الثقة في كل البشر باستثناء والديه وأخته (هدى) وصديقه (حمزة)، وفتاة تدعى (سارة) تسكن في الدور الثاني، والتي تكبره بسبع سنوات، والتي يتعلق بها كثيرًا، يقول إنها تنتظره ليتزوجها عندما يكبر.

أيقنت أنه رغم كونه يعيش تقريبًا في الشارع، حيث يقضي معظم وقته في مدخل البناية، يمر عليه يوميًا عشرات الأشخاص، إلا أنه محاط بجدران كثيفة من الوحدة، سجين لحالته التي ترفع فيها أسوار

الشك من المحيطين به وغيرهم ممن يمرون عليه مجرد المرور العابر، سجين ملابس تملأها القطب رغم نظافتها التي لا يراها أحد.

مهمة كسْب ثقة (رضا) ليست صعبة، ولكن حذار من فقدانها؛ لأنها لو ضاعت من المستحيل أن تعود، المهمة الأصعب هي توجيه أبوين لم يحصلا على أي قدر من التعليم، وإن كان نمط حياتهما قد أكسبهما خبرات أكثر مما قد يتعلمان في المدارس أو الكتاتيب، ولكن هذه الخبرة لن تكون كافية للتعامل الصحيح مع (رضا).

خمس مراحل يمر بهم الأبوان، الإنكار فالاكتئاب، الغضب والإثم، ثم المساومة والتفاوض، حيث يبدآن في طلب المساعدة، وأخيرًا القبول، ما زالت (إجلال) في مرحلة الإنكار رغم طلبها للمساعدة والتي جاءت لإحساسها بالضعف واعترافها بجهلها، أما (صالح)، فقد قطع شوطًا كبيرًا في مرحلة الاكتئاب، وكان على شفا الغضب، وهي من أصعب المهام التي ستواجه (نور)، يجب ألا يمكث (صالح) في هذه المرحلة كثيرًا حيث ستشكل خطرًا كبيرًا على مستقبل (رضا)، وربما تدخله في مرحلة من الاكتئاب يستحيل معها مواصلة حياته، وربما ستؤدي به إلى الموت.

بدأت (نور) في اكتساب ثقة (رضا) منذ اليوم الأول، أحضرت له كرة قدم ليلعب بها في مدخل البناية، ولا ينتظر (حمزة) وكرته، أحضرت له ساعة يد رقمية، وبدأت تعلمه قراءة الوقت فيها، تكررت لقاءاتهما، حيث كانت تأتي له بشكل شبه يومي، وأحيانًا تصحبه هو و(إجلال) و(هدى) إلى إحدى الحدائق العامة، صحبته

يومًا إلى حديقة الحيوان، أيام قليلة ونجحت في إقناعه بالعودة إلى المدرسة، بل وصحبته في أول يوم، وجلست بجواره حتى انقضاء اليوم الدراسي كاملاً.

أبدت اندهاشها من قدرته على حفظ النصوص، إذا قصت عليه حكاية كان يستطيع أن يحفظها كاملة، ثم يعاود إلقاءها بأسلوب مسرحي، وكأنه يقوم بتمثيل شخوصها، شجعها هذا على اصطحابه في أحد الأيام إلى عرض مسرحي لأحد فرق الهواة بالجامعة، مسرحية "العادلون" لـ(ألبير كامو)، انبهر كثيرًا بأجواء المسرح، ظل صامتًا طوال العرض يتابعه بشغف، يراقب حركات الممثلين وكلماتهم، يصفق في الأوقات الصحيحة بحماس حتى إنه لا يتوقف حتى تربت (نور) على كتفه ليفعل، خرج سعيدًا بعد العرض، وطوال الطريق حتى المنزل لم يكف عن الحديث، أخذ يتحدث عن الممثلين، عن الملابس عن الديكورات، وأخذ يتلو أجزاء من مشاهد المسرحية، ويؤديها بنفس حركات وتعبيرات من قاموا بأدائها.

مع تكرار لقاءاتهما تعلق (رضا) بـ(نور) كثيرًا، بدأ يرى العالم بعيونها، ولأول مرة شعر بأن هناك ما هو أوسع من غرفتهم الضيقة تحت درجات السلم، هناك أشياء خارج إطار بوابة البناية، اللوحة الساكنة التي يشاهدها يوميًا بدأت تتحرك، تخرج من إطارها لتتحول إلى بشر يعيشون ويتنفسون، إلى حيوانات يراها لأول مرة، شروق وغروب، يحسب توقيته بدقة على ساعته الرقمية.

(7)

إنه العام 2003، أصبح عمري الآن 12 سنة، بدأت أحسب الوقت جيدًا بفضل ساعة اليد التي أعطتني إياها (نور).

أعرف أن شهر رمضان قد اقترب عندما أشاهد صبية الحي وهم يقومون بتعليق المصابيح الكهربائية بطول الشارع، مع فوانيس كبيرة ومجسمات للكعبة والجوامع صنعوها من جريد النخيل وألواح الخشب والأوراق الملونة، ووضعوا بداخلها مصابيح كبيرة لتنير الطرقات، يأتي بعض صبية الحي لأبي ليقوم بتصنيعها لهم، لقد كان هذا عمله في الفيوم قبل أن يأتي إلى هنا، يضعون بين يديه عيدان الجريد القديمة التي جمعوها من أقفاص متهالكة، والأوراق الملونة والحبال مع بعض الصمغ المصنوع في البيوت عن طريق خلط النشا بالماء الساخن، فيقوم أبي بتحويل كل ذلك إلى مجسمات جميلة رائعة الألوان والأشكال، وكان يفعل ذلك بسعادة كبيرة، وبدون مقابل.

أتيقن من أن أول أيام رمضان غدًا عندما أسمع أغنية "رمضان جانا" تخرج من المذياع الصغير الذي يضعه والدي بجواره على المقعد الخشبي، هذا المذياع الذي أعطاه له عم (رأفت).

نجلس على الطبلية مساءً للسحور، نشرب كثيرًا من الماء قبل أذان الفجر، نسمع صوت الأذان قادمًا من مكبرات الصوت لكل مساجد المنطقة لتغطي على صوت المذياع، يصحبني والدي لصلاة الفجر في

مسجد "أبو الفضل"، قالت لي أمي أنني لم أعد صغيرًا، وأنني يجب أن أصوم إلى المغرب بعد أن كنت أصوم إلى العصر في الأعوام الماضية.

صوت الشيخ "محمد رفعت" يخرج من المذياع، هذا يعني أن المغرب قد اقترب، أخيرًا سآكل وأشرب، لقد جف لساني؛ لأنني أخرجه دائمًا خارج فمي حتى أستطيع التنفس، تعبت كثيرًا في أول أيام الصيام، ولكن أمي أخبرتني أن أول يوم هو دائمًا الأصعب، وأنني سأعتاد على الصيام، وستكون باقي الأيام أقل تعبًا.

يرسل إلينا الحاج (سليم) الذي يسكن بالدور الثاني وجبة الإفطار يوميًا من مطعم "أبو إسلام" للمشويات الذي يمتلكه، يفرح بها أبي وأمي كثيرًا، حيث يتذوقا اللحم المشوي والكفتة والدجاج، الأمر الذي لا يحدث إلا بشكل موسمي، فعادة لا نستطيع شراء الدجاج فنكتفي بأرجلها وأحشائها التي تنظفها أمي جيدًا وتسلقها ليتناولوها مع الخبز والملح، أما أنا، فلا أتناول هذا الطعام، لا أحب اللحوم أو الدجاج، لا آكل إلا الأرز الأبيض والملوخية، أو شطائر الجبنة بالطماطم، في رمضان وفي غير رمضان، بجانب البليلة طبعًا، أحيانًا يقول أبي وهو يضحك أنني إذا جرحت سأنزف ملوخية بدلاً من الدماء، أما (هدى)، فلا تبدو سعيدة بهذا الطعام الذي يرسله يوميًا الحاج (سليم) في رمضان، رغم أنها تعشق اللحم المشوي والكفتة، إلا أنها تقول لي أنها بدأت تملّ من عطف الناس علينا، تقول أن الناس تفعل كل الموبقات طوال العام، ثم تحاول مسح ذنوبها في رمضان فقط عن طريق الإحسان إلينا، أليس الله موجودًا طوال

العام، لم لا يتذكرونه إلا في رمضان فقط ؟! يريدون أن نكون تذكرتهم لدخول الجنة، ولكن من يكون تذكرتنا نحن؟! أحيانًا - أو أغلب الوقت - لا أفهم ماذا تعني!! ولكن ما فهمته أننا فقراء، والأغنياء يستغلوننا ليغفر الله ذنوبهم.

في المساء، صحبني (حمزة) لمشاهدة مباريات كرة القدم التي يلعبها صبية وشباب الحي في شارع "مراد"، بعد محاولات كثيرة لإقناع أبي الذي يخشى علي من الاختلاط بصبية آخرين خارج دائرة قاطني المبنى، ولكنه اقتنع في النهاية عندما أقسم له (حمزة) بأنه لن يتركني وحدي ولو حتى للحظات، كما أن معظم صبية المنطقة باتوا يعرفونني.

لأول مرة أشاهد هذا، الكثير من الصبية والشباب يتجمعون في منتصف الشارع، يضعون بعضًا من الحجارة لعمل المرميين، المصابيح تضيء الشارع وكأننا في ساعة الظهيرة، البقعة التي يلعبون فيها قد خلت من السيارات، صراخ وهتاف باللعب واحتفالات بإحراز الأهداف، التصقت بكتف (حمزة) الذي وقف على جانب الطريق يشجع بحماس أخاه (حذيفة) الذي يلعب معهم، كان (باهر) يقف على الجانب المقابل، يشير إلي ويخرج لسانه ويضحك، فقال لي (حمزة):

- لا تكترث له، فهو شخص قليل الأدب.

لم أكن بالفعل أكترث له، علمتني (نور) كيف أتجاهل مثل هذه المواقف، وكيف أتعامل مع هؤلاء الأشرار، كنت أتابع المباراة التي تلعب في منتصف الشارع، و(حمزة) يشرح لي ما يحدث:

- هذا فريق شارع "مراد" بقيادة (تامر التورماي) يلاعب فريق شارعنا "عمر شاهين" بقيادة (أشرف قوطة) الذي يسكن في البناية المجاورة، ويضم الفريق أخي (حذيفة)، نحن نشجع فريق شارعنا، انظر لـ(تامر) إنه قوي البنية لا أحد يستطيع المرور منه بالكرة، ولهذا؛ لقبوه بالتورماي، أما هذا اللاعب في فريقنا، فهو (عبده النعامة) إنه سريع لا يستطيع أحد اللحاق به، يمكنه أن ينتقل بالكرة من مرمانا لمرمى المنافس في ثانية واحدة، ولهذا؛ لقبوه بالنعامة.

التقط (عبده) الكرة، ومر من لاعبي فريق شارع "مراد" برشاقة وسرعة، راوغ الأول والثاني، وتوجه مباشرة صوب المرمى، كاد أن يحرز هدفًا، ولكن في اللحظة الأخيرة اعترضه (تامر)، احتك بكتفه واختطف الكرة من أمامه، ودفعه بقوة صوب جانب الطريق، فاختل توازن (عبده) واندفع إلى داخل أحد المتاجر، وسمعنا صوت ارتطامه بالأرفف، خرج بعد ثوانٍ ينفض ثيابه مع صيحات فريقه وصيحات الجماهير المصطفين على الجانبين مطالبين الحكم باحتساب خطأ على (تامر) الذي دافع عن نفسه بأنه كان يلعب على الكرة، وهذا يسمى كتف قانوني، انتهى الموقف بخروج عم (سعد) صاحب المتجر الذي عنف (تامر) بأنه يلعب كرة القدم، وليس مصارعة حرة، وعاد إلى متجره، وتبعه بعض من شباب

المنطقة ليساعدوه في إعادة البضائع التي سقطت بعد ارتطام (عبده) بها إلى مكانها فوق الأرفف.

انتهت مباريات الشباب الأكبر منَّا في العمر، جلسوا جميعهم على الأرصفة يلتقطون أنفاسهم ويجرعون الماء، ليأتي دور الفتيان الأصغر، فسألني (حمزة):

- هل تريد اللعب معنا؟

أومأت برأسي إيجابًا في سعادة، كنت دائمًا ألعب الكرة في مدخل البناية فقط، أحيانًا يلعب (حمزة) معي، ولكن أغلب الوقت كنت ألعب وحدي، إنها المرة الأولى التي سألعب فيها مع مجموعة من الفتية.

بدأت أستعد، نزلت من فوق الرصيف، ووقفت في منتصف الشارع، بدأ الفتية في مثل عمرنا في التجمع في المنتصف لتقسيم الفرق، صاح (باهر) معترضًا:

- هل سيلعب معنا هذا العبيط؟

فرد (حمزة):

- لا تتحدث عنه هكذا.

فقال (باهر) بانفعال:

- بل عبيط ... ولن يلعب معنا.

حاوطنا بعض الفتية، بعضهم معترض على كلام (باهر) وبعضهم مؤيد له، فقال (حمزة):

- سيلعب في فريقي.

فاعترض أحد زملائه في الفريق قائلاً:

- سيتسبب في خسارتنا.

فقال (حمزة):

- نحن لا نلعب في كأس العالم، ثم إن فرقتنا معتادة على الخسارة، فما الجديد؟ كما أنه من شارعنا، ويريد اللعب، فمن حقه أن يلعب معنا.

أصر زميله على الاعتراض، وظل (باهر) على موقفه برفضي، بدا أن الأمر سيتطور لمشاجرة، ولكن حسمها (تامر التورماي) قبل أن تبدأ، توسط المتشاحنين، وقال بصوت مرتفع:

- من حق (رضا) أن يلعب معكم، وليس من حق أحد أن يمنعه، من يعترض فليترك المكان.

ثم انفرد بـ(باهر) وبعض المعترضين وهمس فيهم ببعض الكلمات، في النهاية امتثل الجميع لكلام (تامر)، ليس فقط لأنه الأكبر سنًا، ولكنه أيضًا صاحب الكرة التي تلعب بها كل المباريات.

بدأنا اللعب، لم يكن أحد يريد أن يمرر لي الكرة، كنت كالغريب وسطهم، تلقى فريقنا الهدف الأول من (باهر) الذي وقف يحتفل

بتسجيله أمامي، وكأنني كنت السبب، رغم أنني لم ألمس الكرة حتى الآن، بدأنا اللعب من جديد، حاول الفريق الآخر إحراز الهدف الثاني ولكن حارس مرمانا التقط الكرة، قذفها بيده لـ(حمزة) الذي تخطى (باهر)، ثم مرر لي الكرة، فجأة وجدت أن الكرة تحت أقدامي، وجدت قدمي تدفعها جانبًا لأتخطى أحد اللاعبين من الفريق الآخر، ثم أندفع نحو المرمى وأركل الكرة بكل قوة لتمر من بين قدمي حارس المرمى، لحظة من الصمت أطبقت على الشارع، مرت سريعًا لتعلو بعدها الصيحات والتصفيق من كل الموجودين، ويندفع (حمزة) نحوي ليحتضنني مهللاً:

- لقد فعلتها يا (رضا)، لقد أحرزت هدف التعادل لنا.

نظر (باهر) لـ(تامر) قائلاً بتهكم:

- سيلعب فريقهم منقوص العدد؟! سيكون فوزكم مضمونًا؟!

بدأ زملائي في الفريق يبادلوني وأبادلهم تمرير الكرة، التقطت إحدى الكرات، حاول (باهر) اختطافها مني فراوغته بسرعة، حاول دفعي بيده، فعاودت وراوغته مرة أخرى، ففقد توازنه وسقط على الأرض، تقدمت بالكرة، ومررت من فتى آخر، حاول الحارس أن يرتمي ليلتقطها مني فراوغته لأجد أمامي المرمى خاليًا فأدفع الكرة بهدوء داخله، لتتعالى صيحات الموجودين بالشارع جميعهم، تقدم مني (تامر التورماي) قائلاً:

- أنت لاعب ماهر يا (رضا)، غدًا ستلعب في فريقي.

ليصيح فيه (أشرف قوطة) الذي كان يتابع المباراة:

- لا ... (رضا) من شارعنا، وفرقتنا أحق به منكم، غدًا سيلعب في فرقتنا.

جميعهم يعرفني، إنهم يتنازعون من أجلي، المرة الوحيدة التي شعرت فيها بمثل هذه السعادة عندما أخبرتني (سارة) بأنها ستنتظرني حتى أكبر لنتزوج.

أنا أحلق في السماء، أصعد درجات تكونت من السحاب وقطرات الماء حتى وصلت إلى الجنة.

عاودنا اللعب، الكرة بين أقدامي، (باهر) أمامي، سأراوغه، حاول اختطاف الكرة مني، ولكنه بدلاً من أن يركل الكرة ركل قدمي بقوة، فقدت توازني وسقطت، ارتطم ذراعي بحجر الرصيف بقوة، صاح (تامر) الذي كان يحكم المباراة:

- ماذا تفعل يا (باهر)؟ إنها مباراة، وليست مصارعة، الكرة ركلة حرة لـ(رضا).

آلمني ذراعي كثيرًا، لم أكن أشعر بيدي، ولكنني قمت ونفضت الغبار عن ملابسي لأكمل اللعب.

فجأة بدأت صيحات الشباب حولي في الابتعاد، بدأت إضاءة الشارع في الخفوت، أظلمت الدنيا من حولي.

لم أعد أشعر بشيء.

***

على أحد أسرّة المستوصف التابع لمسجد "أبو الفضل" بدأ (رضا) في فتح عينيه بصعوبة، فقد حمله بعض الفتية إلى المستوصف بعد أن فقد الوعي أثناء لعبه للمباراة، الطبيب يحاول إفاقته بوضع بعض الماء على وجهه وتدليك منطقة الحاجبين والصدر، (صالح) يقف بجواره و(إجلال) تحتضن يده، والفزع بادٍ على قسمات وجهها، وخارج الغرفة يقف (تامر) و(حمزة) وبعض الفتية يغلفهم القلق، سأل الطبيب:

- أهي المرة الأولى التي يحدث بها ذلك؟

فأجابت (إجلال) بلهفة:

- نعم يا دكتور.

فقال وهو يكمل فحص (رضا):

- يجب أن تقوموا بعمل بعض الفحوصات له، سأقوم بتدوين بعض المطلوب، واذهبوا به إلى مستشفى "الساحل" على الفور.

فقالت (إجلال):

- ماذا به يا دكتور؟

فأجاب:

- هناك حاجة إلى إجراء مخطط صدى القلب، صورة بالموجات فوق الصوتية، من المحتمل أنه يعاني من بعض الاضطرابات في قلبه،

لا يجب أن نستبق الأحداث، فقط قوموا بعمل الفحوصات المطلوبة واعْرِضُوه على طبيب متخصص.

كل ما فهمه (صالح) و(إجلال) من حديث الطبيب أن (رضا) يعاني من مشكلة ما في القلب، فسأله (صالح):

- هل هو أمر خطير يا دكتور؟

فأجابه:

- أي مشكلة صغيرة إذا لم تحل، تصبح خطيرة.

عادوا إلى غرفتهم، ومن جديد جلس (صالح) على المقعد الخشبي أمام البناية يقاوم غرائز الأبوة التي تلكز نزعات الأنانية التي يفرضها الفقر والعوز، كان يُمنّي النفس بولد يكون له سندًا في الدنيا، ودعامة تصلب ظهره البالي، عكازًا يتكئ عليه في رحلات الصعود والهبوط لالتقاط كسرات الحياة، ولكن في المقابل حصل على طفل يحتاج إلى المساعدة الدائمة، عكاز منخور لا يمكن الاتكاء عليه، دعامة تحتاج دعامة حتى تستقيم، تركه للموت بعد الولادة، فكان مصيره النجاة، فهل يتركه مرة أخرى؟ نعم سيتركه، بل ويتمنى له الموت، ليس كرهًا له، فمهما كان الجسد هزيلاً فالقلب دائمًا يتسع لشعور الأب تجاه ابنه، ولكن موته سيفسح المجال لغيره، العمر يمضي والسنوات تمر كالريح، ولكنه لا يزال قادرًا على الإنجاب، ليفسح (رضا) مكانًا فوق الفراش لولد جديد، ولد حقيقي.

ولكن (إجلال) كعدتها لم تيأس، اصطحبت (رضا) في الصباح الباكر إلى مستشفى "الساحل"، وبعد يوم طويل من الهرولة بين غرف وممرات المستشفى عادت قبل أذان المغرب بخيبة أمل كبيرة، أخبرها الأطباء بأن (رضا) يعاني من مشكلة تتطلب عرضه على طبيب متخصص في جراحات القلب بمستشفى "القصر العيني"، في اليوم التالي مباشرة كانت في مستشفى "القصر العيني" لتعود منها بهموم جديدة وأحمال تقسم الحديد، حيث أخبرها الطبيب المختص بأن (رضا) يحتاج إلى إجراء جراحة بالقلب، وسيتم إدراج اسمه على قائمة الانتظار التي ربما تطول لسنوات، وحتى ذلك الوقت لا يجب عليه القيام بأي مجهود بدني، ولا يمكنه الصيام، ووضع لها برنامجًا خاصًا للتغذية تعلم تمامًا أنها لن تستطيع الالتزام به.

كثفت (إجلال) من عملها في خدمة سكان العقار حتى تستطيع توفير الأموال اللازمة لشراء الأدوية التي وصفها الطبيب لـ(رضا)، كانت تطرق الأبواب لعرض المساعدة في شراء احتياجات السكان والمساعدة في تنظيف المنازل، أرادت إخراج (هدى) من المدرسة لإلحاقها للعمل بأحد البيوت، كانت ترى أن حياة (رضا) أهم من تعليم الابنة، لا فائدة من تعليم فتاة مصيرها إلى الزواج، ولكن (صالح) أبى إلا أن تكمل ابنته تعليمها، فمهما كان مستقبلها مبهمًا، فتعليمها قادر على إلقاء بصيص من الضوء داخل اليم المعتم الذي يسيرون نحوه.

(9)

بعد انقضاء عامين من أول لقاء بينهما، لم تعد (نور) تزور (رضا) كثيرًا، قلّت زياراتها حتى انقطعت تمامًا، في أحد الأيام جاءت لتدعوهم لحضور مناقشة رسالة الماجستير الخاصة بها، كعادة (صالح) رفض في البداية، ولكنه وافق بعد إلحاح من (إجلال) وتأكيد (نور) أن تواجد (رضا) مهم، حيث إنه هو محور الدراسة التي بنيت عليها سطور الرسالة.

لم تكتف (نور) بدعوتهم، بل إنها صحبتهم في سيارتها لقاعة المناقشة، وأجلستهم في الصف الأول.

كان انبهار (رضا) كبيرًا عندما شاهدها، وهي تصعد على المنصة بمعطفها الأسود ذي الشرائط الذهبية، والقبعة السوداء، صفق بحماس مع الحضور حتى توقفوا، ولكنه استمر في التصفيق كثيرًا حتى ربتت (إجلال) على كتفه حتى يتوقف، ابتسمت (نور) له، وقالت:

- شكرًا يا (رضا).

شعر بسعادة كبيرة، الملكة التي تستعد للتتويج قالت اسمه من فوق المنصة، ابتسم ولوّح لها بيديه.

بدأت (نور) حديثها قائلة:

- لقد بدأت كلامي بشكر (رضا)، بالفعل أنا أشكره من قل قلبي، هو وعائلته التي سمحت لي بعمل هذه الدراسة، في البداية، كانت

الدراسة بعنوان: "تأثير البيئة الاجتماعية على المصابين بالتأخر العقلي"، ولكنني قد قمت بتغيير العنوان إلى "تأثير البيئة الاجتماعية على أشخاص متلازمة داون".

ثم بدأت تقرأ الكلمات التي دونتها في مقدمة الرسالة:

- إنه من الخطأ أن نصف من حباهم الله بمتلازمة داون على أنهم مصابون بالتأخر العقلي، حتى إنه لا يجب كتابة كلمة مصاب قبل وصفهم، فهم ليسوا مصابين، بل هم متميزون ومختلفون، الشخص العادي يمتلك في خلاياه 46 كروموسوم، متلازمة داون تحدث عندما يكون لدى الشخص نسخة إضافية كاملة أو جزئية من كروموسوم 21 ليصبح عدد الكروموسومات 47، ولهذا؛ يتغير مسار التطوير، وتظهر عليه خصائص متلازمة داون، فتتغير بعض الصفات الشكلية، حيث يتميزون بتسطح الوجه والأنف، الشعر الناعم الكثيف، العينين المشدودين إلى أعلى بزوائد جلدية تحتهما، الفم والأذنين الصغيرين، تباعد بين إبهام القدم وباقي الأصابع، كثرة التجعيدات في باطن القدم، راحة اليد تحوي خطًا واحدًا، قِصر الإبهام، هذه فقط الصفات الشكلية التي يمكن أن تختلف من شخص لآخر، أما الصفات السلوكية لديهم، فجميعها تتطابق، فهم لا يحملون داخلهم سوى الطيبة والحب، وكأن هذا الكروموسوم الإضافي يطغى على الكروموسومات الأخرى الخاصة بالشر والإيذاء، ويقضي على صفات الحقد والكراهية في نفوس من احتلهم، لقد بنيت هذه الرسالة على دراسة ثلاث حالات من متلازمة داون، كل

منهم يعيش في بيئة مختلفة، في مستويات مادية واجتماعية متفاوتة، ولكنني قبل أن أساعدهم على التعامل مع المحيطين بهم، اكتشفت أنني قد تعلمت منهم الكثير والكثير.

استمرت مناقشة الرسالة قرابة الساعتين، لم يشعر (رضا) بالملل، بل كان يتابع ما يحدث بشغف، لم يفهم كثيرًا مما قيل، ولكنه كان يعلم أنه هو محور هذا النقاش.

في طريق الخروج بعد انتهاء المناقشة، كانت (نور) تقف وسط الناس تتلقى التهاني بحصولها على درجة الماجستير بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف، تقدم منها (رضا) قائلاً:

- عندما أكبر لا أريد أن أصبح راقص باليه، أريد أن أصبح مثلك.

انحنت (نور) تقبل وجنتيه قائلة:

- لولاك لما كنت هنا الآن، وأنا أثق أنك يومًا ما ستكون مثلي، بل أحسن مني.

في هذا اليوم حلم (رضا) بأنه يقف فوق المنصة، يرتدي المعطف والقبعة السوداء، يتحدث فيصفق له كل الحضور الجالسين أمامه، والده ووالدته، (هدى) و(نور)، (حمزة) و(سارة)، عم (رأفت) و(عصام)، حتى عم (يوسف) بائع الفول، جميعهم يصفقون له بسعادة.

(10)

إنه العام 2005، أصبح عمري الآن 14 عامًا، كانت فرحة أمي كبيرة عندما علمت أنني قد نجحت في الدراسة، وسأنتقل في العام القادم إلى الصف الثالث الابتدائي، أما هدى، فستنتقل للصف الثاني الإعدادي، تضاءل حلمها في أن تصبح باليرينا، لم تعد تحاول أن تقلد حركاتهم، لم تعد تذكر ذلك، اكتفت بالدراسة وبمساعدة والدتي في أعمال خدمة المنازل، وأنا بدأت في مساعدة والدي في أعماله، حيث أستيقظ يوميًا مع أذان الفجر، أقفز من فوق أبي الذي لا يزال نائمًا فوق الحصيرة، وأخرج من الغرفة لأقف على باب البناية لأشاهد العائدين من صلاة الفجر، أملأ صدري برائحة الصباح، وأنتظر عم (يوسف)، أنتظر حتى يفرغ من الأواني المتدلية، لأهرع إلى الغرفة وألتقط الآنيتين المعدنيتين الموضوعتين بجوار الموقد والأربعة جنيهات الموضوعة تحتهما، لم يعد الجنيهان كافييْن الآن، لأنطلق إلى عم (يوسف):

- باثنين جنيه فول ... وباثنين جنيه بليلة.

لم يعد عم (يوسف) كما كان، أصبح لا يبتسم، يداه ترتعشان بقوة، لا يتكلم، فقط يضع الفول والبليلة في الآنيتين ويناولني إياهما، ويضع الجنيهات الأربع في جيب المئزر الذي يعلقه على كتفه، ثم يجلس على كرسي خشبي صغير يضعه بجوار العربة.

أضع الآنيتين مكانهما بجوار الموقد، ثم أبدأ في غسيل سيارات سكان العقار، بالفعل تعلمت من والدي كيف أفعل ذلك، أملأ الدلو بالماء، أسكب الماء على السيارات بالإبريق، ثم أمسحها بقطعة القماش القديمة، أما الزجاج، فيمسح بقطعة من الجرائد، صرت مكلفًا أيضًا بشراء الخبز لنا ولسكان البناية من المخبز الذي يقبع في الشارع المجاور، شارع "طاهر"، الرجل العجوز الذي يبيع لنا الخبز يطلقون عليه عم "علي المجنون"، لا أعرف لماذا؟ يبدو لي شخصًا طيبًا، ولكنه يتحول إلى شخص آخر إذا طلب منه أحد تغيير أحد أرغفة الخبز، ينفعل بعصبية، ويقول بصوت مرتفع: "ممنوع تغيير الخبز".

تعطيني والدتي قطعة من القماش الملفوف لأضعها فوق رأسي، وأضع فوقها طاولة الخبز، بعد ذلك أقوم بتوزيعه بنفسي على السكان، أقوم بعدّ عشرة أرغفة وأصعد بهم إلى السيدة (مديحة) بالدور الثاني، أسعد كثيرًا عندما تفتح لي (سارة) الباب لتلتقطهم مني، لم أر والدها سوى مرات قليلة، يأتي كل فترة كبيرة محملاً بحقائب كثيرة، يقضي عدة أيام، ثم يحمل حقائب قليلة ويرحل، سألتها ذات مرة عن والدها، فقالت:

- والدي يعمل في إحدى دول الخليج، ويأتي لنا لمدة أسبوعين كل سنة.

فقلت:

- أريد أن أطلب يدك منه لنتزوج.

فقالت بابتسامة:

- عندما يأتي المرة القادمة.

أخذت الخبز مني، وأغلقت الباب.

اعتادت أمي اصطحابي للسوق لمساعدتها في حمل الخضروات التي تشتريها لسكان البناية، أسعد بهذا الأمر كثيرًا، حيث أذهب في كل مرة إلى عم (سالم) بائع الفاكهة لأطلب منه ثمرتين من الموز، إحداهما لي والأخرى لـ(هدى)، في أحد الأيام طلبت منه ثمرة ثالثة لأعطيها لـ(حمزة) صديقي، ولكنه رفض وقال لي:

- يكفيك اثنتان.

حزنت كثيرًا؛ لأنه لم يعد يبتسم لي، لم أتناول ثمرة الموز هذه المرة، بل سأعطيها لـ(حمزة) حتى يلعب معي بالكرة في مدخل البناية، كما اعتدنا أن نفعل سابقًا، ولكنه رفض أن يأخذها، رفضها بأدب وصعد إلى منزله، لم يعد يلعب معي منذ فترة كبيرة، حتى في أيام الإجازة الصيفية، تذكرت ذلك اليوم من العام الماضي، كانت آخر مرة نلعب فيها الكرة سويًا في المدخل، لعبنا كثيرًا حتى ضربنا التعب، فجلسنا على حافة الدرجات نستريح، فسألته:

- عندما تكبر ... ماذا تريد أن تصبح؟

فأجاب:

- أريد أن أكون قائدًا عظيمًا لجيوش المسلمين مثل "صلاح الدين الأيوبي".

- من "صلاح الدين الأيوبي"؟

- ألا تعرفه؟ إنه قائد جيوش المسلمين الذي حرر القدس من الصليبيين.

هززت رأسي نفيًا، فأكمل:

- سوف تدرس قصته في المرحلة الإعدادية.

سكت برهة، ثم سألني:

- وأنت ... ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟

فأجبت:

- سابقًا كنت أريد أن أصبح راقص باليه مثل أختي (هدى)، أما الآن، فأنا أريد أن أصبح معلمًا مثل (نور).

ضحك (حمزة) قائلاً:

- راقص باليه؟؟؟ إنها مهنة للسيدات، ثم إنها حرام، ستدخلك النار.

- من قال لك هذا؟

- كل الرقص حرام يا (رضا)، إنها أمور معروفة.

سكت برهة، ثم قال بشرود:

- أتعرف ... عندما كنت صغيرًا كنت أريد أن أصبح طبيب قلب شهير مثل الدكتور "مجدي يعقوب"، ولكنني عندما أخبرت والدي بذلك وبخني بشدة، قال لي أننا لا يجب أن نتشبه بالنصارى، ولا يجب أن نحبهم.

- من هم النصارى؟

- المسيحيون.

- أتقصد مثل عم (شريف سامي) وعم (سعد بطرس) الساكن بالدور الثالث؟

- نعم.

- ولكنني أحبهم، فهم أناس طيبون.

كان هذا آخر حوار بيني وبينه، ومنذ ذلك الوقت لم يعد يلعب أو حتى يتحدث معي، أشاهده يوميًا ينزل في موعد الصلاة بصحبة والده وأخيه (حذيفة) ليتوجهوا إلى مسجد صغير بشارع "مراد" يسمى مسجد "فاطمة الزهراء"، سألت والدي ذات مرة:

- لمَ نصلي الجمعة في مسجد "أبو الفضل"؟ لمَ لا نصلي في مسجد "فاطمة الزهراء" كما يفعل (حمزة)؟

فقال لي:

- إنهم يطيلون في الخطبة والصلاة كثيرًا، حتى إنهم يكادون يوصلون الظهر بالعصر.

فسألته:

- لماذا؟

فابتسم قائلاً:

- كلها بيوت الله، الصلاة مأجورة في أي منها.

كل جمعة يصحبني والدي للصلاة في مسجد "أبو الفضل"، نجلس على الحصيرة الخضراء لنستمع إلى الخطبة من خارج المسجد، تظلنا الشجرة الكبيرة أمام مدخله، وعندما ننتهي نجلس بجوار عم (عصام) أمام فرشته، وأحيانًا يساعده والدي في بيع الجرائد والخبز، حيث يتزاحم الناس عليه مباشرة عقب الصلاة.

هذه المرة صحبني والدي على غير العادة لنصلي الجمعة في مسجد "السيدة نفيسة"، هذا المسجد أكبر كثيرًا من مسجد "أبو الفضل"، له رائحة مميزة، رائحة ذكية تظل في أنفك لعدة أيام، كان هناك أحد المصلين يحمل قارورة زجاجية تعلوها بلية دوارة وبها سائل بني اللون، يمر على الجالسين في الصفوف فيمسك كفوفهم ويمرر البلية الدوارة عليها، فيمسحون كفوفه ببعضها ويقومون باستنشاقها، مر الرجل بي، فمددت كفي وفعلت مثلما يفعلون، حملت يدي أجمل رائحة شممتها طوال حياتي، أخذت أضع يدي على أنفي كل دقيقة وأستنشق منها قدر ما أستطيع، سألت أبي عنها، فقال بأنها تسمى رائحة المسك، عند خروجنا من المسجد رأيت أحد البائعين جالسًا على الرصيف وأمامه لوح خشبي يضع عليه زجاجات العطور بألوان

مختلفة، طلبت من أبي أن يشتري لي زجاجة مسك، رفض في البداية، ولكنه وافق أخيرًا تحت إصراري وبعد إلحاحي الشديد.

في طريق العودة لم نستقل الحافلة الكبيرة، بل ركبنا ميكروباص، هناك طفل في مثل عمري يقف على بابه، ينادي بصوت مرتفع وبدون توقف: "تحرير ... رمسيس ... رمسيس"، يقوم بتحصيل الأموال من الركاب، ويمد يده خارج النافذة ليشير للسيارات المارة عن يمينه إذا أراد السائق أن يتوقف على جانب الطريق، أو ينعطف يمينًا.

احتفظت بزجاجة المسك ولم أستخدمها، اكتفيت بالرائحة التي ظللت أشتمُّها في يدي لعدة أيام، حتى جاءت الجمعة التالية، وضعت زجاجة المسك في جيب جلبابي، وعندما وصلنا إلى مسجد "أبو الفضل" أخرجتها، وبدأت أفعل كما كان يفعل الرجل في مسجد "السيدة نفيسة"، مررت على الجالسين في المسجد، وبدأت أمرر البلية الدوارة على أكفهم ليشتموا رائحة المسك، بعضهم كان يبتسم في وجهي، أو يربت على كتفي، وبعضهم كان يتراجع ويسحب كفه بسرعة ناظرًا لي بتعجب، ولكنه يعاود ويمد كفه لي لينال بعضًا من رائحة المسك.

***

في أحد الأيام من عام 2007 استيقظت كعادتي مع أذان الفجر، وقفت عند مدخل العقار، الآنيتان موضوعتان مكانهما في انتظار قدوم عم (يوسف)، ولكنه لم يأتِ.

لأول مرة منذ سنوات لا أعرف كم تحديدًا، لم يتخلف عن الحضور، حتى عندما وهن جسده، وأصبح يدفع عربة الفول أمامه كأنه يدفع سنوات عمره التي تجاوزت السبعين، لم يتخلف يومًا عن الحضور.

انتظرت كثيرًا، بدأت الشمس في الظهور، سيصحو والدي ليجد أنني لم أقم بعد بغسيل السيارات، ستصحو أمي ولن تجد الفول في الآنية، و(هدى) لن تستطيع الإفطار بدون البليلة!!

حملت الآنيتين، وأخذت أجوب الشوارع المحيطة بحثًا عن عربة فول فلم أجد، لم يكن أمامي سوى أحد المتاجر بالشارع المجاور، نظر لي صاحب المتجر باندهاش عندما أعطيته الآنيتين، لم يعد أحد يفعل ذلك، كان يُعبئ الفول في أكياس بلاستيكية، كما أنه لا يبيع البليلة، عدت حائرًا بآنيتين فارغتين وكيس من الفول، وبدون البليلة، كيف سأفطر أنا و(هدى)؟

علمت من ووالدي بعد ذلك أن عم (يوسف) قد توفي، صعد إلى ربنا فوق السماء، ولن نراه مرة أخرى.

لأول مرة أعرف معنى أن تفقد شخصًا اعتدت أن تراه كل يوم، أردت أن أبكي، ولكن والدي قال لي أن الرجال لا يبكون أبدًا، شعرت بأن صدري يضيق، أتنفس بصعوبة رغم أن لساني خارج فمي.

اختفت (نور) تمامًا، ولم تعد تأتي لزيارتنا منذ فترة كبيرة، كنت موجودًا أيضًا يوم حصولها على الدكتوراه، ذكرت اسمي وشكرتني، كما حدث في المرة الأولى، وصفقت لها كثيرًا، ولكنني لم أرها منذ ذلك اليوم.

(11)

أتممت الشهادة الابتدائية وأنا في عامي السابع عشر، وفي أحد الأيام من صيف عام 2008 عاد الأستاذ (أسامة) والد (سارة) من السفر، محملاً كالعادة بحقائب كثيرة، لم أنتظر كثيرًا، قبل أن يقوم بإنزالها من فوق سيارة الأجرة طلبت منه أن يزوجني (سارة) الجميلة، نظر لي والدي بغضب لا أعرف سببه!! أما الرجل، فلم ينطق بكلمة، فقط ابتسم وربت على كتفي، ثم تركني ومضى، هل معنى هذا أنه وافق؟! بالتأكيد فعل.

ساعدت والدي في حمل الحقائب إلى شقتهم بالدور الثاني، وأنا أكاد أحلق عاليًا من السعادة، لم أشعر بثقل الحقائب بين يدي، لم أشعر بدرجات السلم، لم أشعر سوى بخفقات قلبي، وأنا أشاهد (سارة) وهي تحتضن والدها، تمنيت لو أكون مكانه لتحاوطني بذراعيها الرقيقتين.

بعدها بأيام قليلة وجدت سيارة نصف نقل محملة ببعض المقاعد وأسلاك من المصابيح الملونة، بدأ أبي يساعدهم في إنزالها بهمة، سألته عما يحدث، فأخبرني أنهم يستعدون اليوم لحفل خطبة (سارة) ابنة الأستاذ (أسامة)، ماذا؟ خطبة (سارة)؟! هل أكون أنا خطيبها؟ بالتأكيد لا، لم يخبرني أحد! كيف وافقت على خطبة غيري؟! صعدت مندفعًا نحو الدور الثاني، كان باب شقتهم مفتوحًا ووالدها منهمك في إزاحة بعض الأثاث من مكانه بمساعدة شخص آخر،

ناديت على (سارة) عدة مرات، رمقني والدها بنظرة غريبة ودعاني للدخول، رفضت، وسألته:

- ألم توافق؟ لقد ابتسمت عندما سألتك.

خرجت (سارة) من غرفتها، أجمل من كل مرة رأيتها فيها، كعادتها ابتسمت، وسألتني:

- خيرًا يا (رضا)، ماذا تريد؟

فقلت:

- ألم تقولي لي أنك تنتظرينني؟ ألم تقولي لي أنك ستتزوجينني؟ لقد طلبت من والدك ووافق، لقد ابتسم، ألا يعني ذلك أنه وافق؟!!

قالت:

- ماذا تقول؟ اذهب من هنا يا (رضا).

بدأت دموعي في التساقط، وأنا أقول:

- أنت فتاة سيئة ... أنت فتاة سيئة.

تحولت ابتسامتها لنظرة غاضبة، وقالت:

- أنا كنت أمزح معك يا (رضا)، لم أعتقد أنك تأخذ الأمر على محمل الجد، كما أنني لن أتزوج شخصًا منغوليًا وأصغر مني سنًا، هيا اذهب الآن، لدي الكثير لأقوم به.

تدخل والدها قائلاً:

- اذهب الآن يا (رضا).

دفعني برفق وأغلق الباب.

دفعت أقدامي بصعوبة للنزول، نظر لي والدي، وطلب مني أن أساعده، ولكنني لم أستطع، شعرت برجفة في جسدي ومرارة في حلقي، بدا قلبي وكأنه يضرب صدري بمطرقة ليحدث به فجوة ليخرج منها، تسمر جسدي مكانه، حاولت أن أتحرك فلم أستطع، شيئًا ما قبض على قدمي، وسحبني إلى الأرض، لقد مت كما مات عم (يوسف)، و(سارة) تسحبني من قدمي لتدفنني تحت درجات السلم، بدأت أصوات الناس من حولي في الخفوت، بدأ النهار في الانقضاء، وظهر ليل حالك بلا مصابيح.

لم أعد أشعر بشيء.

(12)

مرت ثلاثة أيام و(رضا) على هذه الحالة، منذ فقد الوعي في مدخل البناية يوم خطبة (سارة)، لا يخرج من الغرفة، لا يترك الفراش، لم ينطق بكلمة، يرفض حتى تناول الطعام، شارد الذهن، يكتفي بالاستلقاء على الفراش والتحديق في سقف الغرفة، حاولت (إجلال) معه كثيرًا، ولكن دون جدوى، حاولت (هدى) إغراءَه بحلوى الموز التي يعشقها، ولكنه لم يستجب، بدأ جسده الهزيل في الانكماش، ازداد شحوب وجهه، بدا رافضًا للحياة مطاردًا للموت، ومرة أخرى تراود (صالح) تلك الأشباح، أهي شياطين أم آمال منطقية؟ إذا كان (رضا) سيموت، فليمت الآن ليفسح مكانًا لغيره، كعادته يحاول أن ينفث شياطينه مع دخان الشيشة والسعال والبصاق، جلست (إجلال) بجواره قائلة:

- ماذا سنفعل؟

ناظرًا أمامه، لا يرى سوى الدخان، أجاب (صالح) دون أن ينظر إليها:

- ليفعل الله ما يريد.

- هل سنترك (رضا) على هذه الحالة؟

- وماذا بيدنا أن نفعل؟

- نذهب به إلى المستشفى.

- وماذا ستقدم له أكثر مما نفعل نحن؟!

سكت برهة ليسحب نفسًا من الشيشة، ثم أكمل والدخان يخرج من فمه:

- إننا نقتطع من قوت يومنا لنبتاع له أدوية القلب والصدر والأعصاب، وكلها أدوية غالية الثمن، سنوات ونحن ننتظر حتى يجدوا لنا مكانًا لعمل الجراحة، أو يأذن الله و....

قطع كلامه، لم يرد أن يفصح لـ(إجلال) عما بداخله، ولكنها بادرته بالقول:

- أعلم أنك لا تريده، منذ اليوم الأول، أخبرك الطبيب بأنه يحتاج لحضانة، ولكنك فضلت أن تتركه للموت، ولكن الله أراد له الحياة، حتى هذه الأدوية غالية الثمن ترفض شراءها، وأبتاعها أنا من عملي في خدمة البيوت.

أشاحت بوجهها عنه، نظرت إلى الجزء الظاهر من قرص الشمس الذي يستعد للغروب، ويتوارى خلف أحد الأبنية الكبيرة بشارع "جسر البحر"، وقالت:

- لقد أسميته (رضا) حتى ترضى، ولكنك لم تفعل، ذات مرة قالت لي إحدى السيدات أن أنجب غيره؛ لأنه بلا فائدة، أتعلم لِمَ لمْ يستدعونا حتى الآن لإجراء الجراحة؟ لأنهم يفقدون الأمل في شفائه، في آخر زيارة لي للطبيب في المستشفى قال لي أنه يشفق علي من التردد على المستشفى كل شهر للسؤال عن دوره في الجراحة، أخبرني

أن دوره لن يأتي، فلا جدوى من إجراء الجراحة؛ لأنه سيموت قريباً، كان هذا الكلام منذ عامين تقريباً، ولكن الله أراد له الحياة، لا أنت ولا أنا ولا أطباء العالم يستطيعون منع إرادته، ولا أحد يعلم حكمته.

كان كلامها كفيلاً بطرد شياطين (صالح) ولو مؤقتًا.

لم يكن أمام (إجلال) إلا أن تلجأ لـ(نور)، والتي اختفت تمامًا من حياتهم منذ أكثر من عام بعد حصولها على شهادة الدكتوراه.

يومان آخران قضاهما (رضا) رافضًا لكل ما حوله، هزل جسده حتى أصبح على شفا الموت، مغلقًا عينيه وأذنيه عما حوله، تسلل إلى عقله صوت يعرفه جيدًا ويفتقده، صوت دافئ حنون:

- استيقظ يا (رضا).

صوت لا يمكن رفضه، فتح عينيه بصعوبة، فإذا بـ(نور) تجلس بجواره على الفراش، بمجرد أن رآها حاوطها بذراعيه الضعيفتين، وانفجر باكيًا، تنفست (إجلال) الصعداء، لأول مرة منذ خمسة أيام يبدي ردة فعل، حتى وإن كان البكاء، بدت السعادة على وجهها، وإن صاحبتها غيرة في قلبها حاولت إخفاءَها، ربتت (نور) على كتفه، وانتظرت حتى ينتهي من إفراغ دفقات مشاعره كاملة، بدأ كلامه قائلاً:

- لقد تركتني (سارة)، ستتزوج شخصًا غيري، إنها فتاة سيئة، لقد كنت أحبها، هي لا تحبني، أنا الآن أكرهها.

فقالت (نور):

- كونها خطبت لشخص غيرك لا يعني هذا أنها لا تحبك، ولكن ليس كل الحب ينتهي بالزواج، فأنا مثلاً أحبك، ولكنني لن أتزوجك.

- لا أحد يحبني.

- لا تقل ذلك، فأسرتك تحبك، والدتك ووالدك و(هدى)، جميعهم يحبونك.

- لقد قالت لي (سارة) أنها لن تتزوج شخصًا منغوليًا.

فقالت (نور):

- أنت لست شابًا منغوليًا يا (رضا)، أنت شاب حباه الله بمتلازمة داون، حتى من الخطأ أن نصفك بكلمة مصاب، بل أنت مختلف، اختلاف جيني يؤثر على المظهر الخارجي، كالطفل الذي يولد بشعر أصفر أو آخر يولد بشعر مجعد، طفل يولد ببشرة بيضاء أو سمراء، عين سوداء أو بنية، كلها اختلافات جينية، فهل من الطبيعي أن نقول على طفل أنه مصاب بعين بنية؟ أو أن هذا الشاب مصاب بشعر ناعم وكثيف؟ كذلك أنت، ليس من المعقول أن نقول إنك مصاب بمتلازمة داون، فأنت تحمل جينات مختلفة بكروموسوم إضافي، فهذا اختلاف وليس إصابة.

- ولكن الجميع يقول إنني منغولي، لماذا؟

- في بادئ الأمر - قبل التقدم العلمي - لم يكن أحد يعرف السبب الحقيقي لاختلاف من ولدوا بمتلازمة داون، ولكن كان التشابه واضحًا بين ملامحهم وملامح بعض الشعوب التي تقع في جنوب غرب

قارة آسيا وخاصة الشعب المنغولي، فمنغوليا هي بلد تقع شمال الصين، يتميز أهلها بالبشرة البيضاء والعيون الضيقة المسحوبة والشعر الناعم الكثيف والأنف الدائري، يشبهون إلى حد كبير الصفات الشكلية لمتلازمة داون، ولهذا؛ أطلقوا عليهم منغوليين، تشبهًا بشعب منغوليا، وكان هذا خطأ كبيرًا، حتى بدأ العلم حديثًا في رصد الحالة ووصفها تفصيلاً بوجود كروموسوم إضافي في أشخاص متلازمة داون عن الأشخاص الآخرين، وأول من قدم وصفًا دقيقًا للحالة كان عالمًا يسمى "جون لانجدون داون"، ولهذا؛ تم إطلاق اسمه عليها، فسميت متلازمة "داون"، أنت مميز يا (رضا)، فلا تخجل من تميزك، أنت جميل، فلا تخجل من مظهرك، أنت مختلف، فلا تخجل من اختلافك، فجميعنا مختلفون، في الصفات الشكلية وفي الطباع وفي التفكير والتعليم والثقافة، مختلفون في المعتقدات، مختلفون في الأفعال وردود الأفعال، في استيعابنا للكلام والمواقف، لا أحد يشبه الآخر بنسبة مائة بالمائة، هذا ما خلقنا الله عليه، وعلينا تقبله والعيش به، وعلينا قبول الاختلاف فينا وفي الآخرين.

- ولكن كثير من الناس يخشى حتى التحدث معي، بل إن بعضهم يؤذونني.

- لا تأبه لهم، إنهم لا يقدرون خلق الله، إنهم أشرار.

- لمَ كل هذا الشر موجود حولنا؟

- حتى نعرف قيمة الخير يا (رضا).

- أريد أن أصبح شريرًا مثلهم.

- حتى وإن حاولت، لن تستطيع.

لم يدم حديثهما طويلاً حتى حملته (نور) على تناول قدْرٍ قليلٍ من الطعام تبعه بأدويته، في طريقها للانصراف لم تخف عنها (إجلال) تساؤلها: لمَ استجاب لها مباشرة رغم محاولاتهم التي استمرت لخمسة أيام، وباءت جميعها بالفشل؟

فردت (نور):

- هذا أمر طبيعي، فـ(رضا) يعتبرني صديقته قبل أن أكون معلمته ومثله الأعلى، أحيانًا عندما يموت للإنسان شخص عزيز عليه، يظل متماسكًا أمام الناس وإن كان يفيض بداخله حزنًا، ولكنه عندما يرى صديقًا مقربًا، يحتضنه، وينفجر بعدها في البكاء، ما تعرض له (رضا) هو أقوى بكثير من فقدانه شخصًا عزيزًا عليه، لقد ماتت بداخله حياة كاملة كان يعيشها، إنه الآن بحاجة إليكم أكثر من ذي قبل، وهو أيضًا بحاجة إلى أصدقاء، ألم يكن له صديق مقرب؟

فقالت (إجلال):

- كان ... ولم يعد.

فسألت (نور):

- صديقه (حمزة) أليس كذلك؟ أين هو الآن؟

ردت (إجلال) بأسى:

- لقد نضج.

(13)

في شتاء عام 2009 عاد (رضا) من المدرسة ليجد مدخل العقار مزدحمًا برجال لم يرهم من قبل وسيدات متشحات بالسواد، وقد رصت مقاعد كثيرة في الشارع بجوار المدخل، وعندما سأل والده عما يحدث، فأخبره بأن الحاج (رأفت) مالك العقار قد توفاه الله.

من أين جاء كل هؤلاء؟ طوال سنوات كان يعهده وحيدًا، لم يكن أحد يأتي لزيارته إلا نادرًا، وكان والده هو من يقوم على خدمته، كلما سنحت له الظروف.

خرج النعش محمولاً على الأعناق، ونُصب صوانٌ كبيرٌ بالليل.

لم يمض سوى أيام قليلة حتى جاءهم أحد أبناء الحاج (رأفت) ليخبر (صالح) بأنهم يستغنون عن خدماته، فالمبنى لم يعد بحاجة إلى بواب، كما أنهم سيقومون بتأجير الغرفة التي يعيش فيها لأحد متاجر قطع الغيار المجاورة لاستخدامها كمخزن لبضاعته، وأمهله أسبوعين لإخلاء الغرفة من متاعه.

ألقى (صالح) بجسده على الحصيرة محدقًا في سقف الغرفة المتعرج الذي يعكس درجات السلم من الأسفل، شعر أن السقف يهبط لأسفل، يطبق على صدره حاملاً أطنانًا من الهموم، ذابت الأيام، وانقضت بين درجات البناية صعودًا وهبوطًا، وذاب معها جسده

النحيل، دارت الأعاصير في المسقط محملة بروائح القمامة الممزوجة بروائح طهي الطعام، أراد أن يسلم جسده للموت، ولكن الموت عزيز.

انطلق في الشوارع يبحث عن مكان آخر، قبر جديد يعيشون بداخله، بحث حوله، فلم يجد سوى بشر معلقين بخيوط في الهواء، كأنهم عرائس خشبية تحركها أيادي الشهوة والطمع والغضب والأنانية، يعلوها وجه الشيطان ضاحكًا، سعيدًا بما أنجز البشر.

عاد ليفرغ حنقه وضعفه مع دخان الشيشة، ويدفن أفكاره في مياهها العكرة، وكأنه يريد أن ينتحر بسرطان الرئة، حتى السرطان صار عزيزًا.

مرت الأيام ثقيلة، شارف الأسبوعان على الانقضاء، حتى جاءه (عصام) مهرولاً، وقال في سعادة:

- هناك مبنى كبير في شارع "شبرا" أمام مسجد "الخازن دار" يبحث عن بواب، لقد تحدثت مع رئيس اتحاد الملاك، ويريد أن يراك الآن.

ترددت في داخله مقولة الحاج (رأفت): "إن الله يعطي البرد على قدر الغطاء"، فترحم عليه.

بسعادة يكبحها القلق ذهب (صالح) لمقابلة هذا الرجل، نظر بخوف إلى هذا المبنى الضخم، اثني عشر طابقًا، في كل طابق أربعة شقق، كان لديه عشرة شقق أنهكته طلباتهم التي لا تنتهي، الآن

سيصبح لديه ثمان وأربعون شقة، بالفعل الأجر مضاعف، ولكن العمل خمسة أضعاف.

ولكن ... هل يملك غير الموافقة؟!

***

لم يقابل (صالح) ابن الحاج (رأفت) مرة أخرى، ولم يودع أحدًا من سكان البناية، فقط ترك مفتاح الغرفة مع أحد السكان بالدور الأول بعد أن أخلاها، وحمل متاعه القليل البالي على سيارة نقل صغيرة ليتوجه وعائلته صوب المبنى الجديد.

غرفة واحدة أيضًا، ولكنها أوسع قليلاً عن سابقتها، ملحق بها حمام صغير، ولكنه في نفس مستوى الغرفة لا يعلوها، مبطن بالقيشاني بقاعدة أفرنجية، وباب خشبي، هناك بعض الأشياء التي تركها البواب السابق، تلفاز قديم ومذياع متهالك وثلاجة صغيرة تقف على قاعدة صدئة، يبدو أن هذه الأجهزة كانت هدايا من سكان العقار أعطوها له بعد أن أنهكوها استهلاكًا، وصارت عبئًا عليهم أرادوا التخلص منه، ورغم ذلك سعدت بها (إجلال) كثيرًا، بالغرفة نافذة واحدة تطل على مسقط البناية، وضع الفراش بجوارها، رص متاعه القليل، ثم ألقى بجسده على الفراش، أخذ يتفحص السقف المستقيم، لا يعكس درجات السلم من الأسفل، لم تمض سوى دقائق حتى سمع طرْقًا على باب الغرفة، خرج فإذا برجل ممتلئ الجسد، في الخمسينات من العمر، يتصبب عرقًا رغم برودة الجو، نظر لـ(صالح) نظرة متشككة لم يفهمها الأخير، ثم بادره بالسؤال:

- أنت البواب الجديد؟

- نعم.

فقال الرجل بحدة:

- ما أسمك؟

بدا الأمر موترًا لـ(صالح)، فكاد أن يتلعثم، وهو يجيب:

- (صالح) ... (صالح عبد الغفار).

ألقى الرجل نظرة خاطفة على أسرة (صالح) داخل الغرفة، وكأنه نخاس يعاين بضاعته، ثم قال:

- أنا (شفيق الوكيل) الدور الرابع شقة 15 ... تعال معي، فلدي مشتريات أريدك أن تحملها معي من السيارة إلى شقتي.

أومأ (صالح) برأسه إيجابًا، وتبع الرجل الذي توقف فجأة والتفت إليه قائلاً:

- احترس، لقد طردنا البواب السابق؛ لأنه كان لصًا، لا أمانة له ولا ضمير.

لعدة أيام كلما مر به أحد سكان العقار نظر له نظرة متشككة، ليدور بينهما نفس الحوار، إذن، سيدفع (صالح) فاتورة البواب السابق، فأي بواب يأتي بعده يقع في دائرة الظن، وسيظل كذلك حتى يثبت العكس.

(14)

انتقلنا للعيش في بيت جديد، أكبر من بيتنا السابق، وبه حمام بقاعدة يمكن الجلوس عليها كالمقعد، أقرب لمدرستي الإعدادية من السابق، كذلك مدخل البناية أكبر وأفضل للعب الكرة به، على قدر سعادتي بكل هذا على قدر حزني؛ لأنني لن أرى صديقي (حمزة)، رغم أنه لم يعد يلعب معي إلا أنني كنت أراه يوميًا، وهو يذهب مع والده للصلاة، كذلك سأفتقد عم (حامد) صاحب الكشك على الناصية، وعم (عصام) صديق والدي، سأفتقد شارعنا، وشارع "مراد" والدورة الرمضانية لكرة القدم التي تلعب به، رغم أنني لم أعد أشاركهم اللعب إلا أنني كنت مواظبًا على الذهاب لمشاهدتها كل عام، وتشجيع فريق شارعنا بقيادة (أشرف قوطة) و(عبده النعامة).

منذ عدة سنوات، وأنا أنام بجوار والدي على الحصيرة، حيث إنني قد كبرت على النوم بجوار والدتي و(هدى) على السرير، في مسقط البناية وبجوار النافذة يوجد مضخة مياه كبيرة والتي تدفع المياه للصعود للأدوار العليا، ولكنها تصدر أزيزًا مزعجًا تهتز له الجدران، كلما تبدأ في العمل تجعلني أستيقظ فزعًا، قال والدي أننا سنتعود على ذلك بمرور الوقت.

البناية كبيرة، وعدد المنازل بها كثير، لم أعرف أحدًا منهم بعد، هناك مصعد، ولكن والدي يمنعني من استقلاله بمفردي.

في أحد الأيام سمعنا صوتَ شجار وصياح قادمًا من الدور السادس، صعد أبي بسرعة ليرى ما يحدث، وصعدت خلفه، وجدنا مجموعة من الرجال يتقاتلون بالعصي الغليظة أمام إحدى الشقق، حاول والدي التفريق بينهم، نال نصيبه بخبطة على رأسه فشجتها وألقته أرضًا والدماء تسيل منها، فسحبني من يدي، ونزلنا درجات السلم بسرعة مبتعدين عن أرض المعركة، صرخت أمي بمجرد رؤيتها للدماء التي تغطي وجه أبي وتلطخ قميصه، هرولت إلى إحدى الشقق لتطلب قليلاً من البن، وضعته على رأس أبي فتوقفت الدماء عن التدفق، نزل رجلان ممن كانوا في المشاجرة تغطي الدماء ملامحهما، يحملان رجلاً ثالثًا لا يتحرك، يسبون ويلعنون ويتوعدون من فعل بهم ذلك، لم يمض وقت طويل حتى جاءت سيارة الشرطة، علمنا أن المشاجرة كانت على ملكية إحدى الشقق، فقد باعها صاحبها إلى شخصين، وتركهما يتقاتلان عليها، اصطحبت الشرطة جميعهم إلى القسم، واصطحبت أبي معهم، لقد تورط وسط المشاجرة، كما أنه بواب البناية، بات أبي ليلته في القسم، ولم تكف أمي عن النحيب حتى عاد في صباح اليوم التالي.

(15)

عاد (صالح) في السابعة صباحًا من قسم الشرطة، وعلى رأسه ضمادة تخفي تحتها ثلاث قطب تمت حياكتها بمستشفى "الساحل"، والذي قام قسم الشرطة بتحويله إليه حتى يتم عمل تقرير الإصابة لإرفاقه بالمحضر، ما زال قميصه مخضبًا بالدماء، لم يستطع حتى تغييره، حاولت (إجلال) إقناعه بتناول شيءٍ من الطعام، ولكنه أبى، رأسه ثقيل من الإصابة وعدم النوم، فألقى بجسده على الفراش، وراح في نوم عميق، تكومت (إجلال) بجواره على الفراش، حيث لم تنم ليلتها هي الأخرى قلقًا عليه، لم تمض سوى نصف ساعة حتى أيقظهم طرْقٌ قوي على باب الغرفة، حاول (صالح) النهوض، ولكن رأسه الثقيل ألقاه مرة أخرى على الفراش، فقامت (إجلال) ووضعت غطاء رأسها بسرعة، وفتحت الباب، فإذا به السيد (توفيق مختار) رئيس اتحاد الملاك، والذي قال بلهجة حادة:

- أين (صالح)؟

سمعه (صالح) فنهض بصعوبة، وتقدم منه، وهو يقول والكلمات بالكاد تخرج من فمه:

- أنا هنا ...

فقال (توفيق) بغضب، وهو يشير إلى درجات السلم، ومدخل البناية:

- انظر إلى هذه الفوضى، كيف تترك كل هذه البقع من الدماء على الدرجات وفي مدخل العقار منذ الأمس، نظفها فورًا بالماء والفنيك، ليس هذا شكلاً لبناية محترمة، أنت لم تكمل شهرًا هنا، إذا لم تعمل بضمير سنحضر بوابًا غيرك، وما أكثرهم.

ثم أدار ظهره، وانصرف.

طغى الغضب على التعب الذي يشعر به (صالح)، التقط الدلو والممسحة وهمَّ بالخروج من الغرفة، حاولت (إجلال) إثناءه عن الخروج عارضةً أن تقوم هي بتنظيف الدرجات، ولكنه رفض، وأصر على أن يفعل ذلك بنفسه.

أمسك بالممسحة، وبدأ ينظف الدماء التي تغطي الدرجات من الدور السادس حتى المدخل، يفرغ ما تبقى من فتات طاقته مع الماء على الدرجات، يمرر الممسحة ليلتقط بقايا الدماء والأوساخ التي انتشرت بلا مبالاة، يهبط بها الدرجات واحدة تلو الأخرى بين جدران بلا روح، لم يكد يفرغ من مهمته حتى انهالت عليه طلبات أخرى من ساكني البناية، لم يحفظ أسماءهم بعد، هذا الرجل البدين من الدور الثامن يطلب منه إحضار سباك بسرعة لإصلاح صنبور تالف في دورة المياه، السيدة المسنة (سهير) بالدور الثاني تطلب منه أن يوقف لها سيارة أجرة تنتظرها أمام البناية لتذهب لزيارة ابنتها في "مدينة نصر"، أحد السكان بالدور العاشر استدعاه ليشتكي له من أبناء جاره بالدور الخامس الذين يلعبون بالمصعد صعودًا وهبوطًا، أوامر كثيرة انغمس في تنفيذها، ومشكلات تلقى على كاهله، وهو

مطالب بحلها وإلا ... "أنت لا تصلح"، "أنت متواكل، كسول، قليل الحيلة، لا تعمل بضمير، ..."، لا وقت للراحة، لا وقت لالتقاط الأنفاس، لا يوجد للرق إجازة، ليس مسموحًا لك بأن تمرض، لا تكل، هذا أو ارحل، البيوت ترفض، المنازل تلفظ، أما الشارع، فلا يعرف الرفض، الشارع للإهانة، إهانة النفس ونخاسة الروح، لكن نخاسة الجسد أكثر رحمة.

أغلق الباب الحديدي للبناية في المساء، تمدد فوق الحصيرة متأملاً في (رضا) الذي يغط في نوم عميق بجواره، يخرج لسانه فاغرًا فاه حتى يسمح للهواء بصعوبة أن يدخل رئتيه، لا يريد أن يشق عليه بإرغامه على مساعدته، لقد أصبح (رضا) في الصف الأول الإعدادي، ينغمس في تحصيل دروسه، يكفي أنه لا يستطيع توفير مدرس خاص، كما هو المفترض في حالته، نظر إلى (إجلال) التي تمددت فوق الفراش بعينين مشفقتين تحدقان به، وقالت:

- تعبت كثيرًا اليوم.

فقال:

- وكل يوم، فما الجديد؟

- غدًا بمشيئة الله ستنصلح الأحوال.

- لا يوجد بها ما يمكن أن ينصلح.

- غدًا يوم جديد.

- لم أعد أراه.

- ما لك متشائم؟

- لقد اكتفيت من الدنيا ... أصبحت أدرك قيمة الموت، وأريده.

اعتدلت (إجلال) في جلستها، وقالت:

- هذه أنانية سيحاسبك الله عليها، تريد أن تنعم أنت بالموت، وتترك لنا نقم الحياة.

نظر مرة أخرى إلى (رضا) قائلاً:

- لم يكن علينا أن ننجب.

- إنها إرادة الله.

تنهد وقال:

- ليفعل الله ما يريد.

أغمض عينيه، وراح في النوم استعدادًا ليوم جديد من الشقاء.

***

أفراح وزغاريد تخرج من بعض المنازل، مختلطة بنحيب وصراخ يخرج من أخرى، إنه اليوم المنتظر، تسعد أسر، وتبتئس أخرى، وينتحر شباب وشابات في مقتبل العمر، ويحاول آخرون الانتحار ويفشلون، إنه يوم نتيجة الثانوية العامة، كابوس الطلبة وجاثوم الأهالي.

أخذت (إجلال) تزغرد بهيستيرية، لأول مرة يدخل هذا القدر من السعادة غرفتهم الكئيبة، نجحت (هدى) في الثانوية العامة بمجموع جيد يسمح لها بالالتحاق بإحدى كليات القمة، رغم أنها لم تنهل من حميم الدروس الخصوصية، كما كانت تفعل معظم زميلاتها، بل اكتفت بمجموعات التقوية التي حضرتها بفصول مسجد "أبو الفضل" ومسجد "الفتح" بمنطقة "الخلفاوي".

اختارت (هدى) أن تلتحق بكلية التربية جامعة عين شمس، وقد كانت سعادتها كبيرة عندما استلمت ورقة التنسيق بقبولها، جلست بجوار (رضا) قائلة:

- سألتحق بالكلية يا (رضا)، قسم التربية الخاصة كـ(نور)، هل تتذكرها؟

أومأ برأسه إيجابًا، ثم قال:

- لم تعد تزورنا ... لقد نضجت مثل (حمزة) ... كما تقول أمي.

- لقد بعدت المسافة بينك وبين (حمزة)، لماذا لا تتخذ أحدًا من صبيان البناية هنا صديقًا؟

- حاولت ... ولكنهم لا يريدون.

- هذا أفضل لك، أرى بعضهم يتسكعون ليلاً على الزاوية يدخنون الممنوعات، لا صديق لك الآن سوى دراستك وكتبك، يجب أن تنجح حتى تلحق بي إلى الجامعة.

- نعم ... سأفعل.

(16)

أشتاق كثيرًا لمسجد "أبو الفضل"، فنحن لم نعد نذهب إليه لصلاة الجمعة، أو صلاة التراويح في رمضان، كما اعتدنا أن نفعل، أبي يصحبني الآن إلى مسجد "الخازن دار" فهو أقرب إلينا، وهو أكبر في الحجم، ولكنني أفتقد مسجد "أبو الفضل"، أفتقد جلستنا بجوار عم (عصام) أمام فرشة الجرائد بعد الصلاة، أفتقد الشجرة الكبيرة التي تظل المصلين، تذكرت زجاجة المسك، فابتسمت ونحن نجلس داخل مسجد "الخازن دار" لصلاة الجمعة، سأطلب من والدي أن نشتري زجاجة أكبر هذه المرة، فعدد المصلين هنا كبير، كان العام 2011 ورغم أننا في شهر يناير إلا أن الجو كان دافئًا، لم يطل الإمام في الخطبة، أنهاها بسرعة على غير العادة، فرغنا من الصلاة، وذهبنا لالتقاط أحذيتنا، فجأة سمعنا صياحًا قادمًا من المصلين خارج المسجد، ازداد الصياح وتحول إلى ضوضاء تصم الآذان، اختلطت أصوات الناس بأصوات طلقات يرتج معها زجاج نوافذ المسجد، وضعت يدي على أذني، احتضنني والدي، وتوجهنا إلى إحدى الزوايا، الناس متجمعون أمام الباب، هناك شيءٌ ما يمنعهم من الخروج، هناك من يحاولون الدخول للاحتماء بالمسجد من دخان كثيف انتشر بالخارج، بدأوا يتدافعون، اختلط من يريد الخروج بمن يريد الدخول، حاول بعضهم إغلاق باب المسجد، فلم يستطع من شدة التدافع، صرخات تخرج من كل الأركان، وهتاف يرج الجدران، صوت تحطم إحدى النوافذ من خلفي، ثم صوت طلقة تبعها سقوط

جسد معدني بجواري، أسطوانة صغيرة يخرج منها دخان كثيف، صرخات الأطفال داخل المسجد تتصاعد، صاح أحد الرجال:

- قنبلة غاز ... قنبلة غاز.

انطلق أحد الشباب وخلع معطفه، لفه على يديه وأمسك بها، وألقاها مرة أخرى من النافذة بعد أن خلفت دخانًا كثيفًا حجب الرؤية داخل المسجد، رائحته سيئة، بمجرد أن استنشقت هذا الدخان شعرت بدوار، وآلام رهيبة في عيني، وضيق في صدري، وبدأت أسعل أنا وكل من حولي، خلع الناس ملابسهم، ووضعوها على أنوفهم، خلع أبي قميصه ووضعه على أنفي، وضمني إليه وهو يسعل، سمعنا صوتًا من آخر المسجد ينادي:

- الباب الخلفي للمسجد مفتوح ... هيا اخرجوا.

بالكاد أستطيع أن أفتح عيني، نظرت ناحية الصوت، فإذا به إمام المسجد يقف بجوار باب مُطل على الشارع الجانبي، تدافع الناس للخروج والإمام يحاول حثَّهم على التنظيم حتى لا يتأذى أحد، سحبني أبي من يدي وتوجهنا ناحية الباب، فصرخت فيه:

- حذائي ... أريد أن أحضر حذائي.

فدفعني قائلاً:

- لا وقت لذلك.

وخرجنا خلف صف طويل من الناس إلى الشارع الجانبي، ضوضاء وجلبة قادمة من شارع "شبرا" امتدت إلى الشوارع المحيطة به، أشخاص تجري خلف آخرين، وآخرون يتقاتلون، عساكر من الشرطة ترتدي زيًا أسود، وتضع خوذات، وتحمل في يدها دروعًا وهراوات تضرب بها المتجمعين أمام المسجد، انطلقت أنا وأبي نجري في الشارع الجانبي بعيدًا عن المعركة، وكلما ابتعدنا عنها كانت هي تقترب، ركضنا كثيرًا وانحرفنا يسارًا ويمينًا، ثم يسارًا حتى نتجنب العودة إلى شارع "شبرا" خاصة المنطقة المحيطة بقسم "الساحل"، أفتح عيني لحظات فتؤلمني فأغلقهما مرة أخرى، وأبي يسحبني من يدي، قدماي الحافيتان تؤلمني، شعرت بسخونة فيهما، ثم وجدت أنهما تخلفان آثارًا من الدماء على الأرض، لقد جُرحتا، لم أستطع الركض، سقطت على الأرض، حملني أبي، رفعني على كتفه، وأكمل هو راكضًا، مر وقت طويل حتى وصلنا إلى منزلنا، بعض السكان يقفون في المدخل، (هدى) تجلس في الغرفة مذعورة، عندما رأتنا ابتسمت بسعادة قائلة:

- قلقت عليكما كثيرًا.

فسألها أبي:

- أين أمك؟

فأجابت:

- ما زالت في سوق "قشقوش" تبتاع الخضروات.

فقال لنا:

- لا تتركوا الغرفة.

ثم خرج ووقف مع السكان بمدخل البناية، اقتربت المعركة من البناية أكثر فأكثر، بدأ بعض الشباب في دخولها هربًا من أفراد الشرطة التي تطاردهم، فصاح أحد السكان في أبي:

- أغلق الباب ... لا تدع أحدًا يدخل.

فأغلقه بالمفتاح ووقف خلفه، تسلل الدخان الكثيف حتى صار أمامنا، بدأ كل ساكن في الصعود إلى شقته حتى صار أبي وحيدًا خلف الباب الحديدي، حاول بعض الشباب استعطافه حتى يدخلهم، ولكنه تجاهلهم تمامًا، وضع قميصه على أنفه وصاح فينا:

- أغلقوا باب الغرفة، ولا تفتحوا لأحد غيرنا.

ثم وقف وحيدًا في المدخل ينتظر.

أغلقت (هدى) باب الغرفة، وبللت قطعة قماش، وأخذت تضمد جراح قدمي، فسألتها:

- ماذا يحدث؟

بصوت تختلط فيه السعادة بالقلق أجابت:

- إنها ثورة، لقد استفاق الناس من غفوتهم.

- لقد خفت كثيرًا.

- الثورات مخيفة في بدايتها، إنها ضريبة التغيير.

- ماذا سيتغير؟

- كل شيء سيتغير.

- ونحن؟

- ستتصلح كل أحوالنا... سنعيش حياة أفضل مما نعيشها الآن.

- نحن نعيش في أفضل حال الآن.

- لا يا (رضا) ... نحن نعيش على فتات غيرنا، ما تبقى منهم، ملابسهم القديمة، ألعابهم التي ملّوا منها، أحذيتهم التي نحلها السير، طعامهم الفاسد الذي يلقونه في حلوقنا، أحلامهم التي أنهكتها الأوهام، طاقاتهم التي استهلكت فيمتصون طاقاتنا، ولكن يجب لكل هذا أن يتغير، آن لنا أن نحيا مثلهم، جميعنا سواسية أمام الله، فلمَ لا نكون سواسية على أرضه؟!

دقائق ووجدنا أمي تدخل الغرفة، تضع طرف طرحتها على أنفها ووجهها يتصبب عرقًا، ألقت حقيبة الخضروات من يدها ودخلت دورة المياه تغتسل، تبعتها لأريها جراح قدمي، فوضعت بعضًا من البن عليها لتوقف تدفق الدماء.

في المساء هدأ الأمر قليلاً، انسحبت سحابات الدخان، لم نعد نسمع سوى بعض الأصوات على فترات متباعدة، صياح، زجاج يتهشم، طلقات نارية لا نعرف مصدرها، ظل والدي جالسًا في

مدخل البناية خلف الباب الحديدي المغلق، حاولت النوم، ولكنني ما زلت لا أستطيع النوم بعمق بسبب مضخة المياه، لم أعتد عليها بعد، تدور فجأة فتصدر أزيزًا مزعجًا ترتج له جدران الغرفة فأنتفض فزعًا، سكتت المضخة فغفوت قليلاً، ثم صحوت مفزوعًا على صوت قوي ارتجت له جدران الغرفة، ثم صياح قادم من الخارج، صراخ يأتي من الشارع بجوار مدخل البناية، كان باب الغرفة مفتوحًا، وكذلك باب البناية الحديدي، استطعت تمييز صوت الصياح، إنه صوت أمي، نظرت فوق الفراش فوجدت (هدى) تنتفض بسرعة، تقفز من فوقي وتعبرني وتجري إلى الشارع فتبعتها، لأرى مشهدًا ظل يطاردني في كوابيسي طوال حياتي ...

أبي ممدد على الأرض، والدماء تندفع من صدره وتغطي ملابسه بالكامل، عيناه جاحظتان، لا يستطيع التنفس.

وأمي تجلس بجواره، تلطم خديها ... وتصرخ.

(17)

كل شيء يتغير في لحظة ...

بفعل طائش، بقرار خاطئ، بلمحة تهور، أو بلحظة لا مبالاة ...

لحظة تمحو تاريخًا... وتغير مستقبلاً...

الفوضى ضربت الشوارع واستثارت النفوس، شياطين الإنس تنتشر، وملاك الموت يقبض بجناحيه على كل شبر في الأرض، لم يستطع (صالح) النوم في تلك الليلة، وضع مقعده الخشبي خلف باب البناية المغلق، وجلس يستمع إلى الأخبار المتلاحقة في المذياع بصوت خفيض، أعد حجرًا من الشيشة ومع أول نفس بدأ في السعال، فألقاه جانبًا، ما زال صدره يعاني من آثار دخان قنابل الغاز، أصوات تكسير واجهات المتاجر كان بعيدًا، ولكنه الآن يقترب ... يقترب ... إنه يصدر من متجر الهواتف المحمولة المجاور لمدخل البناية، أغلق المذياع، أخرج مفتاح الباب وفتحه بتردد، خرج ليرى ماذا يحدث بالخارج.

خمسة من الرجال - أو يزيدون - كسروا باب المتجر المعدني وواجهته الزجاجية، يفرغون المتجر من بضاعته، ويضعونها في صندوق سيارة نقل صغيرة، هرول (صالح) باتجاههم وصرخ فيهم:

- ماذا تفعلون؟ ماذا تفعلون؟

حاول منعهم عما يفعلون، ولكن ... أخرج أحدهم من جيبه سلاحًا ناريًا، ووضعه في صدر (صالح) ...

وبدون تردد ... وبلا مبالاة ...

أطلق الرصاص.

سمعت (إجلال) صوت الطلقة، كان قريبًا بما يكفي ليجعلها تنتفض، وتخرج من الغرفة بحثًا عن (صالح) في المدخل، المقعد خال، حجر الشيشة كما هو بفحمه المشتعل، باب البناية مفتوح، هرولت إلى الخارج لتجد (صالح) ممدًا على الأرض، يضع يديه على صدره محاولاً كتْم الدماء التي تندفع منه كالشلال، يسعل بصوت خفيض يخرج من فمه كالخرير ويخرج معه دفقات من الدماء، السيارة النقل الصغيرة تدير محركاتها محدثة سحابة من الدخان خلفها، عليها مجموعة من الرجال الذين حصلوا على غنيمتهم من هذا المكان، وانطلقوا باحثين عن غنائم أخرى، بلا مبالاة، بلا أدنى إحساس بالذنب، وهم يشاهدون هذه السيدة التي تصرخ فوق جسد زوجها الذي يلفظ آخر أنفاسه.

أخذت (إجلال) تصرخ، وتصرخ، لا أحد يجيب، (هدى) و(رضا) يقفان بجوارها في ذهول غير مصدقين هذا المشهد، فصاحت فيهما:

- ادخلَا الغرفة، وأغلقَا الباب.

حملت (صالح) بين يديها، وبدأت تجري به في كل الاتجاهات، تبحث عمن ينجدها، شل تفكيرها تمامًا، تعثرت في أحد الأرصفة،

وسقطت على الأرض، عاودت النهوض، ثقل رأس (صالح) بين يديها، ارتخى جسده، وتوقف تمامًا عن الحركة، مغلقًا عينيه متوقفًا تمامًا عن التنفس، ركضت به تقطع شارع "شبرا"، تصرخ، لا يوجد أحد، فقط متاجر مغلقة وأخرى تم تحطيمها وسرقة ما فيها.

سيارة أجرة تمر بجوارها، تشير إليها بالتوقف، ينظر سائقها إليهم ثم يبتعد مسرعًا، سيارة أخرى خاصة تمر بسرعة بجوارها، حافلة أجرة تشير لها أن تتوقف، ولكن قائدها يمر بسرعة حتى كاد أن يدهسها في طريقه، أخذت تركض حتى وصلت إلى شارع "دنشواي"، ها هي مستشفى "الساحل" أمامها، أخيرًا طوق النجاة، اقتحمت استقبال المستشفى وهي تصرخ، المكان مزدحم، لا يوجد موضع لقدم، حتى الردهات يفترشها المصابون والجرحى، الدماء تغطي كل الطرقات، ضاعت استغاثتها وسط شلالات الصراخ والبكاء من حولها، وجدت أخيرًا إحدى الممرضات، والتي أشارت لها أن تضعه على الأرض في أحد الأركان حتى يأتي الطبيب.

مر وقت طويل، واستغاثة (إجلال) تتوه وسط زحام الحناجر، ودماء (صالح) تسيل على الأرض لتختلط بدماء العشرات، ثوار ولصوص، شرفاء وأفاقين، حتى جاء الطبيب أخيرًا، كشف على (صالح) في ثوان قليلة، ثم قال:

- البقاء لله.

التفت إلى إحدى الممرضات قائلاً:

- سجلي بياناته، وأرسلي جثته إلى المشرحة.

رحل الطبيب، نظرت الممرضة إلى (إجلال)، وقالت:

- أريد بطاقة الرقم القومي لتسجيل البيانات.

لم ترد (إجلال)، فقالت الممرضة، وهي تنصرف:

- لن أستطيع إدخاله إلى المشرحة بدون بطاقته، أحضريها، وسأعود لك مرة أخرى.

أهكذا؟! انتهى الأمر؟! عينا (إجلال) تتسع في ذهول، توقفت صرخاتها، توقفت استغاثتها وهي تتمدد على الأرض، تحتضن جسد (صالح) بين ذراعيها، تحدق في سقف الردهة الذي أذابته الرطوبة، ابتعدت كل الأصوات من حولها، اختفى الناس، واختفت طرقات المستشفى، لم تعد تشعر سوى بقلبها الذي يصرخ.

أهكذا؟!

انتهى الأمر؟!

أحدث ما كنت تتمناه يا (صالح)؟! رحلت وحدك؟! أيها الأناني الجبان!!

ولمرة أخرى عرفت عيناها سبيل الدموع.

***

ظهر أخوة (صالح)، لم تر (إجلال) بعضهم منذ يوم زفافها، جاءوا من "الفيوم"، حملوا جثمان (صالح) داخل سيارة نقل الموتى، وذهبوا

ليدفنوه في مسقط رأسه، لم يكن هناك مكان في السيارة التي أتوا بها لاصطحاب (إجلال) وأولادها، كما أن الطرق أصبحت غير آمنة، فودعته على باب المستشفى، وعادت بأبنائها لتجلس على المقعد الخشبي الذي اعتاد أن يجلس عليه زوجها أمام البناية، متشحة بالسواد تنتظر المستقبل المجهول، مسيرات من البشر تمر أمامها، لم تعرف من منهم المؤيد ومن المعارض، لم يكن يعنيها هذا الأمر، تشوش نظرها، فأصبح لا يرى سوى كون باهت بلا ألوان، مشهد من فيلم صامت بالأسود والرمادي، حناجر تهتف بكلمات كطلقات الرصاص في جسد الشوارع، حرائق تشتعل فيما تبقى من قلوب البشر، أهكذا؟! انتهى الأمر؟!

لم يكن قد بدأ لينتهي، لا نهاية لما لم يبدأ بعد.

مر أسبوعان على مقتل (صالح)، وفي يوم الجمعة مساءً اكتست الشوارع بالفرح والتهليل، ارتفعت الأعلام وضربت أبواق السيارات، فقد الموت هيبته، لم يبكِ رحيل (صالح) سوى أسرته.

في اليوم التالي مباشرة مر عليها (توفيق) رئيس اتحاد ملاك البناية قائلاً:

- أعرف أن الوقت غير مناسب، ولكن لا يجب أن تظل البناية هكذا، سامحيني، ولكننا نبحث عن بواب جديد، عليكما الرحيل وإخلاء الغرفة بمجرد أن نعثر على أحد ليحل مكان (صالح) رحمه الله.

فقالت (إجلال):

- ولكنني موجودة، سأقوم بكل ما كان يقوم به زوجي.

- أنت امرأة.

- أنا بمائة رجل.

- لا نريد مائة رجل، نريد رجلاً واحدًا، يجب أن يكون البواب رجلاً، كما أن ابنك - سامحيني مرة أخرى - لا يستطيع أن يرث مكان والده.

- اطردني إن قصرت في العمل.

تركها (توفيق) مؤقتًا حتى تثبت قدرتها، أو ترحل، كان عليها أن تبذل جهدًا مضاعفًا، لتضع أحزانها جانبًا، ولتعمل من أجل أبنائها، شق عليها ارتفاع مصروفات تعليمهم، فـ(هدى) في السنة الأولى من الجامعة، و(رضا) في الصف الثالث الإعدادي، حتى إنها منعت (هدى) من مساعدتها، كيف لطالبة جامعية أن تعمل في خدمة البيوت، نصحتها إحدى ساكنات البناية بأن يتوقف أبناؤها عن الدراسة مكتفين بهذا القدر من التعليم، تقليلاً لنفقاتهم، وكذلك ليقوما بمساعدتها في العمل، ولكن كان رد (إجلال):

- سأعمل ليلاً ونهارًا، لن آكل أو أشرب، وليكمل أولادي تعليمهم.

(18)

انقضت ثلاث سنوات، تركت تجاعيدها على وجه (إجلال)، وكأنها تقدمت في العمر ثلاثين عامًا، نحتت ملامحها، وذبلت روحها المتشبثة بضوء خافت، لا تعرف إن كان حقيقيًا أم سرابًا تجري خلفه فيبتعد.

كان عام 2014 هو أصعب الأعوام التي مرت عليها، حتى إنه فاق العام الذي توفي فيه (صالح)، فـ(هدى) في السنة الأخيرة من الجامعة، و(رضا) يعبر الآن تحت مقصلة الثانوية العامة، كان عليها أن تعمل صباحًا في غسيل السيارات، ثم مساعدة السيدات في تنظيف المنازل، بعد ذلك تصحب (رضا) إلى مجموعات التقوية ومراكز الدروس الخصوصية، ثم تعاود في المساء لقضاء حاجات سكان البناية وتنظيفها، ثمانية شهور لم تحصل فيهما على قدر كاف من النوم أو الراحة، حتى فرغت (هدى) من امتحانات آخر العام، فحملت عنها مصاحبة (رضا) إلى مراكز الدروس وقضاء بعض طلبات السكان، حتى انتهى هو الآخر من امتحاناته.

لحظات تتوقف فيها الأرض عن الدوران، وأيام تدور فيها دورات سريعة لا تلمحها القلوب، إنها أيام الفرح، وما أندرها، لمرة أخرى تعرف أيام السعادة - النادرة - طريقها إلى غرفتهم الصغيرة، نجحت (هدى) بتقدير امتياز، وكان ترتيبها الثاني على دفعتها، وقد تم ترشيحها للعمل كمعيدة بالكلية، أفراح كبحها انتظار نتيجة (رضا)،

لتعاود الانطلاق بقوة، نجح (رضا) في الثانوية العامة بدرجات تساوي ثلاثة وثمانين بالمائة، نتيجة ممتازة لطلبة القسم الأدبي، كانت (هدى) تريد إلحاقه بكلية التربية حتى يكون تحت ملاحظتها بشكل مباشر، ولكن مجموع درجاته ألحقه بكلية الآداب، جامعة عين شمس، قسم اللغة العربية، لم يكن أمرًا سيئًا.

الأمر السيئ أن (هدى) لم يتم قبول أوراقها لتعيينها كمعيدة بكلية التربية، تم تعيين الفتاة الأولى على الدفعة، وكذلك الحاصل على الترتيب الثالث، وتم رفض تعيينها بدون ذكر السبب.

ولكن (هدى) كانت تعرف السبب، كما تعرف سبب حصولها على المركز الثاني على دفعتها، رغم شهادة كل أساتذتها بتفوقها، واستحقاقها الترتيب الأول، كان أمامها أعوام كثيرة، ولكن القدر وضعها في نفس العام مع ابنة الدكتور رئيس أحد الأقسام في الكلية، إنها أمور بديهية واضحة كالشمس، الجميع قد أصيبوا بالعمى، أصيبوا بالصمم والخرس، يعبدون أصنامًا متوارثة كأساطير العاشقين الشعبية، (ياسين) و(بهية)، (حسن) و(نعيمة)، جميعها انتهت بموت العاشق وجنون العشيقة التي لا تعي لمَ مات الطيب وبقي الخسيس، (هدى) تعي الحقيقة، الحياة تنتهي بموت العاشقين، تذكرت أحلام طفولتها، صورة الباليرينا لم تفارق قلبها، تحلق في الهواء، تدور مستندة على إصبع قدمها الكبير، الأضواء، تصفيق الجمهور في صالة العرض، أحلام تحطمت، لم يبق منها سوى ذكرى تضحك عليها بسخرية.

ابنة البواب المقتول بطلق ناري وهو يدافع عما لا يملكه، ابنة خادمة البيوت لا يطيب لها أن تحلم، فقط تنظر تحت قدميها، وإذا حاولت رفع رأسها ستقتلعها مقصلة الطبقية المتشبثة بالحياة في أعماق النفوس.

طرقت (هدى) كل الأبواب الممكنة، لم تجد خلفها سوى الفراغ، لا أحد يجيب، ذهبت يائسة إلى آخر أمل يمكنها التعلق به، ذهبت إلى (نور شوقي)، والتي تذكرتها بمجرد رؤيتها، وسعدت كثيرًا عندما علمت بأن (رضا) قد التحق بالجامعة، ووعدتها بمحاولة تقديم ما تستطيع لمساعدتها.

عادت (هدى) لتساعد والدتها في عملها، وعندما بدأ العام الدراسي كانت تصحب (رضا) إلى الجامعة، بل وتحضر معه المحاضرات، ثم تقوم بكتابتها وتلخيصها له، ومساعدته في المذاكرة، تناست أحلامها، وصبت كل طموحها على نجاح (رضا) في الجامعة، وكعادته كان يبدي قدرة كبيرة على حفظ النصوص، كان يستطيع أن يحفظ كتابًا كاملاً في عدة أيام، ويعيد إلقاءه بأداء مسرحي، بعد عدة شهور جاءتها مكالمة هاتفية من (نور)، لتخبرها بأنها وجدت لها وظيفة بإحدى المصالح الحكومية، وهذا أقصى ما كانت تستطيعه.

بدت السعادة واضحة على (إجلال)، أخيرًا ستعمل ابنتها في وظيفة حكومية، أما (هدى)، فبالرغم من أنها استلمت عملها في اليوم التالي مباشرة إلا أنها كانت لا تزال تشعر بأنها ظلمت، انسابت منها أحلامها واحدًا تلو الآخر، ولا تملك سوى أن تعيش حاضرها،

انشغلت في وظيفتها، فأصبحت لا تستطيع التواجد في المحاضرات مع (رضا)، كانت تكتفي بتوصيله إلى الكلية صباحًا، ثم العودة لاصطحابه بعد انتهاء ساعات العمل، تلك الفترة بينهما عاد (رضا) يشعر بالوحدة رغم صخب الجامعة من حوله، يجلس وحيدًا في المدرج، يدون المحاضرات ويحفظها، وعندما تنتهي يجلس بجوار باب الكلية ينتظر (هدى).

في أحد الأيام انتهت محاضرته الأخيرة لهذا اليوم، نظر في ساعته الرقمية، تلك الساعة التي أحضرتها له (نور)، ما زال متمسكًا بها، كانت تشير إلى الرابعة عصرًا، (هدى) تنهي عملها في الخامسة، وتأتي من "حدائق القبة" إلى "العباسية" لاصطحابه إلى المنزل، هناك ساعة كاملة من الانتظار وربما أكثر، خرج من المدرج، مشى في ساحة الجامعة بهدوء ونظره كالعادة إلى الأسفل، اعتاد أن ينظر إلى موضع قدميه وهو يمشي وحده حتى لا يتعثر، يتجنب النظر إلى من حوله، لا يحب نظرات الناس له، تتركز دائمًا أعين الناس عليه، ما بين نظرات الشفقة والاندهاش والفضول، لم يكترث لها في السابق - عندما كان صغيرًا - لأنه لم يكن يفهم لغة الأعين، ولكنه مع الوقت بدأ في تمييزها، فأصبحت كالسهام تصيب قلبه، مر بجوار إحدى القاعات، كان بابها مفتوحًا، فسمع صوتًا قادمًا من الداخل:

- الرجال لا يعيشون بالعدل وحده.

ثم صوت آخر يقول:

- عندما يسرق شخص ما خبزهم، فكيف سيعيشون إن لم تكن هناك عدالة؟

استطاع تمييز هذه الجمل، ما زال يحفظها، إنها حوار من المسرحية التي شاهدها مع (نور) وهو طفل صغير، مسرحية "العادلون" لـ(ألبير كامو)، أربعة عشر عامًا مضت، وما زال يذكر كل تفاصيل تلك المسرحية وحوارها، توقفت قدمه عن الخطوات، سمع الصوت القادم من الداخل يقول:

- عليك أن تكون على يقين تام .....

سكت الصوت فجأة، فردد (رضا) بصوت خفيض:

- سيعيشون بالعدالة والبراءة.

توقف الصوت للحظات، ثم عاد وقال:

- سيعيشون بالعدالة والبراءة.

ابتسم (رضا)، ووقف ينصت، رفع وجهه ونظر داخل القاعة، كان الباب شبه مغلق، إلا أن به فتحة صغيرة استطاع معها رؤية ما يحدث بالداخل، مجموعة من الشباب والشابات يجلسون على المقاعد الخشبية، وفي المنتصف يجلس رجل يبدو أكبر منهم في العمر يضع أمامه أوراقًا كثيرة يخط بها بعض الكلمات، أمامه أربعة شباب وفتاة من طلبة الكلية يقومون بأداء مجموعة الثوار في أحد مشاهد المسرحية.

وجد قدميه تتقدم صوبهم وكأنه لا يستطيع التحكم بها، دفع الباب بهدوء حتى أصبحت فتحته تسمح بالكاد لمرور جسده النحيل، وبخطوات بطيئة تقدم داخل القاعة، ثم جلس على أول مقعد أمامه يشاهد فريق التمثيل بالكلية، وهو يستعد لتقديم عرض في مسابقة مسرح الهواة، يتدربون على الفصل الثاني، حيث لم يستطع "يانيك" إلقاء القنبلة على عربة الدوق لوجود طفلين بها، كان الحوار بين "يانيك" و"ستيبان":

- وإذا انفصلت الثورة يومًا ما عن الشرف، فسأبتعد عنها. إذا قررتم ذلك، سأذهب إلى مَخرج المسرح، ولكن سألقي بنفسي تحت الخيول.

- الشرف هو رفاهية مخصصة للأشخاص الذين يستطيعون شراء العربات.

- هناك شرف داخل الثورة، لهذا السبب...

هنا ظهر صوت (رضا) يصدح في فراغ القاعة مقاطعًا:

- لا ... إنه آخر ما يملكه الفقراء.

فجأة تحولت كل أنظارهم إليه، بدا الغضب على وجه الرجل الأكبر عمرًا، همّ بالصياح، ولكن نظرة واحدة إلى وجه (رضا) أدرك أنه يجب أن يتراجع، أشار إلى أحد مساعديه الذي تقدم من (رضا) قائلاً:

- عذرًا يا أستاذ، هذا الوقت خاص بفريق التمثيل، لا نرحب بضيوف أثناء البروفات، أرجو منك المغادرة فورًا.

فقال (رضا):

- أريد المشاهدة.

فرد الشاب:

- آسف ... لا يمكن.

همّ (رضا) بالانصراف، ولكنه توقف فجأة، واستدار إلى الشاب قائلاً:

- أريد التمثيل.

سمعه كل من بالقاعة فبدأوا يحدقون به، وينظرون إلى بعضهم البعض، ما بين نظرات الشفقة والاندهاش والفضول التي لم تخلُ من ابتسامات السخرية، يميزها (رضا) ولكنه لا يكترث، تمزق قلبه، ولكنه لا ينفعل، أشاح المخرج إلى مساعده بيده، الذي قال:

- أرجوك انصرف.

ولكن (رضا) لم يتحرك، وعاد قائلاً:

- أنا أحفظ المسرحية ... أريد التمثيل.

فخرج المخرج عن صمته قائلاً لمساعده بحدة:

- اصرفه ... لا وقت لدينا للهو الأطفال.

ربت الشاب على كتف (رضا) الذي انتفض متراجعًا، ولكن الشاب دفعه برفق لخارج القاعة وأغلق الباب.

توجه إلى باب الكلية، وجلس حزينًا ينتظر (هدى) التي جاءت في موعدها المعتاد، نظرة واحدة إليه أيقنت أن هناك أمرًا ما أحزنه، فسألته، فأخبرها بما حدث في القاعة، فقالت له:

- لا تكترث لهم، ركز في دراستك، اجعل كل أهدافك أن تنجح، وتتخرج من الكلية.

- ولكنني أحفظ المسرحية.

- هناك أمور أكبر من حفظك لحوار المسرحية يا (رضا).

- أنا أستطيع التمثيل ... أليس كذلك؟

- نعم تستطيع ... أنت موهوب ...

شردت قليلاً، ثم استطردت:

- ولكن ... هناك أمور أكبر من حفظك لحوار المسرحية ... وأكبر حتى من موهبتك.

(19)

صيف العام 2015، ألح (رضا) على والدته أن تصحبه لسوق "قشقوش"، كمكافأة له على نجاحه في السنة الأولى من الكلية بتقدير امتياز وحصوله على الدرجات النهائية في كل المواد، أراد رؤية شيء ما بخلاف غرفتهم ومدخل البناية والطريق من وإلى الجامعة، اشتاق لطعم الموز الذي كان عم (سالم) يعطيه له كلما ذهب معها.

لم يزر سوق "قشقوش" منذ سنوات، اختلفت بعض الوجوه وخط الزمن أثره على أخرى، وقفت (إجلال) تبتاع الطماطم، تحرك (رضا) خطوات حتى أصبح في مواجهة متجر عم (سالم) بجوار سباطة الموز، أمام الباب وقف رجلاً آخر، نظر (رضا) داخل المتجر، فلم يجد عم (سالم) فسأله:

- أين عم (سالم)؟

فرد الرجل بغلظة:

- مات منذ فترة ... أية خدمة؟

- أريد إصبعين من الموز، واحدًا لي والآخر لـ(هدى).

التقط الرجل السكين المعقوف الخاص بتقطيع الموز وفتحه قائلاً:

- أقل كمية نصف كيلو بخمسة جنيهات.

هم بقطع الموز، ولكنه توقف، ونظر إليه قائلاً:

- هل معك نقود؟

هز (رضا) رأسه نفيًا، وهو يقول:

- لا ... عم (سالم) كان يعطيني إياه ... بدون نقود.

فصاح الرجل ملوحًا بالسكين:

- اذهب بعيدًا من هنا ... اذهب في داهية.

لم يتحرك (رضا)، وإنما صاح بصوت مرتفع:

- أريد ... إصبعين ... من الموز.

بدا صوته متلعثمًا من التوتر، وصل صياحه لمسامع (إجلال) التي ألقت ما في يدها من طماطم، وانطلقت مسرعة نحوه، لتقف بينه وبين الرجل الذي عاد يلوح بالسكين في وجه (رضا) بحركة عنيفة.

كانت السكين قريبة من وجه (رضا)، فمدت (إجلال) يدها لتمنعها، فاخترقت السكين ذراعها من تحت المعصم، لتحدث بها جرحًا كبيرًا تناثرت على أثره الدماء على سباطة الموز، ولطخت وجه (رضا)، تجمع الناس من أطراف السوق، يشاهدون الرجل وهو يمسح السكين من آثار الدماء، يصيح في وجه (إجلال) و(رضا):

- أهكذا؟!! لطختم بضاعتي ... اذهبوا وإلا قتلتكم.

وبلا مبالاة ... يخرج قطعة قماش متسخة يمسح بها بقع الدماء من فوق سباطة الموز.

وسط الحشد المشاهد صاحت إحدى السيدات قائلة لـ(إجلال):

- يا سيدة ... اذهبي إلى قسم الشرطة ... اعملي له محضرًا.

نظر لها الرجل نظرة نارية، ثم قال بثقة:

- كانوا يحاولون سرقة بضاعتي، إذا ذهبت إلى القسم أنا من سيسجنهم، أنا أدافع عن مالي.

وضعت (إجلال) يدها على جرحها محاولة كبح نزيف الدماء، وسحبت (رضا) بعيدًا، وجلست على أحد الأرصفة، لحقتها أحد البائعات بالسوق، وربطت يدها بقطعة قماش بالية.

القاع مزدحم بأجساد خرجت منها أرواحها، واستحالت أشباح بلا بصائر، وكأن طلقات الرصاص القادمة من ناطحات السحاب لا تكفي، فيطعنون بعضهم البعض، ولا يشفي ذلك غليلهم، اقتلوا أنفسكم أو اطرحوها أرضًا، لن يطب لكم العيش.

دقائق قليلة مرت، قامت بعدها (إجلال) لتكمل شراء طلبات السكان، حملت حقائبها وعادت.

بمجرد وصولها على باب الغرفة، خارت قواها، سقطت من يدها حقائب المشتريات، وسقطت بعدها فاقدة للوعي.

فتحت (إجلال) عينيها، فإذا بها ممددة على أحد أسرة الاستقبال في مستشفى الساحل، سمعت صوت الطبيب الذي يتحدث مع (هدى) قائلاً وهو يخط بعض الكلمات على ورقة في يده:

- تم إغلاق الجرح بثلاث قطب، ولكن محتمل أن تكون مريضة بالسكري، هذا سبب غيابها عن الوعي بعد فقدانها لقدر لا بأس به من الدماء، يجب عليكم عمل هذه التحاليل لها.

وضعت يدها على الضمادة التي تغطي جرحها، يدها الأخرى مثبتًا بها محقنًا متصلاً بأنبوب يصب في عروقها سائلاً شفافًا، نظرت حولها، فلم تجد (رضا) فسألت (هدى) عنه، فأجابتها أنه في المنزل، حاولت النهوض، ولكن رأسها كان ثقيلاً، أشار لها الطبيب قائلاً:

- ستشعرين بتحسن مع انتهاء هذا المحلول، يمكنكم بعدها الانصراف.

انصرف الطبيب، وجاء رجل يرتدي زي أمناء الشرطة، نظر في التقرير الطبي نظرة سريعة، ثم سأل (إجلال):

- من أصابك بهذا الجرح؟

فردت بصعوبة:

- أنا جرحت نفسي ... كنت أقوم بتقشير البطاطس، ففلتت السكين من يدي فأصابت ....

لم ينتظر الرجل حتى تنهي كلامها، بل أومأ برأسه، وانصرف بسرعة، رمقتها (هدى) بنظرة معاتبة، وهمت أن تنادي عليه، ولكن (إجلال) أوقفتها بإشارة من يدها قائلة:

- أرجوك يا ابنتي ... لا نريد المشاكل ... يكفينا ما نحن فيه.

أراحت رأسها مرة أخرى، وقعت عيناها على الردهة خارج غرفة الاستقبال، عادت إليها ذكرى أسوأ أيام حياتها، تلك الردهة التي لفظ بها (صالح) آخر أنفاسه، أو ربما وصل إليها بعد أن فاضت روحه إلى بارئها، أربعة أعوام مضت، ولكنها لم تنس، تطاردها صرخات الناس، مشاهد الجرحى الذين يفترشون الردهة، الجثث التي تحمل إلى المشرحة، في أحلامها وفي يقظتها، و(صالح) بين يديها، الرجل الذي لم يتوقف يومًا عن العمل، مهما كان متعبًا أو ضعيفًا أو مريضًا، وقد توقفت أنفاسه، وغابت روحه، وسكن جسده.

عاش ليحقق ما يبتغي غيره، ومات دفاعًا عما لا يملك.

أهكذا؟!

انتهى الأمر؟!

(20)

أكدت التحاليل الطبية إصابة (إجلال) بمرض السكري، ثلاثة أشهر والجرح بيدها لم يلتئم، انهارت فجأة، خارت قواها، وأصبحت لا تستطيع تنفيذ كل ما يطلب منها من قبل سكان العقار، حاولت (هدى) المساعدة على قدر ما تستطيع، كذلك (رضا) الذي كان موكلاً بمسح سيارات السكان صباحًا قبل ذهابه إلى الجامعة، وتنظيف درجات البناية وجمع القمامة مرتين أسبوعيًا، كل هذا لم يشفع لهم عند سكان البناية، في أحد الأيام مع بداية فصل الشتاء جاء لهم (توفيق) قائلاً:

- ازدادت شكاوى السكان منكم، لم تعودوا قادرين على الوفاء بكل احتياجاتهم، لقد اتفقت بالفعل مع بواب جديد، وسيتسلم عمله أول الشهر، استعدوا لإخلاء الغرفة.

على المقعد الخشبي جلست (إجلال) تراقب شارع "شبرا" الصاخب، ربما هي المرة الأخيرة التي ستجلس هنا، وهن جسدها وفقدت نصف وزنها، ضرب الشحوب وجهها، وازدادت سنوات عمرها مائة عام، نظرت إلى المتجر المجاور، تحول من بيع الهواتف المحمولة إلى مطعم للوجبات السريعة، يعاود السؤال التكرار، لمَ مات (صالح)؟ ومن أجل من؟ تمر السيارات المسرعة أمامها، لا أحد يتوقف، الحياة أسرع من أن يعيشها أحد، أو حتى يتوقف ليتفقد من دهسهم في طريقه.

لم تشعر بـ(هدى) التي جلست بجوارها حتى بدأت بالكلام:

- لا تخافي يا أمي، أصبح لي الآن مرتب ثابت، سنعيش به.

فقالت (إجلال):

- يا ابنتي ... مرتبك لا يكفي حتى طلباتك الشخصية، إنه ينفد قبل منتصف الشهر، كيف سنقوى على العيش؟ كما أننا لا نعرف أين سنذهب؟ من أين لنا بأربعة جدران يسترون؟

- اعتدتك قوية في وجه كل الظروف.

تنهدت (إجلال) بعمق قائلة:

- آه ... أضعفتني الأيام يا ابنتي.

شردت (هدى) قائلة:

- ومن منا لم تضعفه الأيام؟ من منا لم تهدم أحلامه؟

نظرت لأمها وسألتها:

- ماذا كانت أحلامك عندما كنت صغيرة؟

ابتسمت (إجلال) بصعوبة قائلة:

- الفقراء لا يحلمون ... كان والدك دائمًا ما يقول ذلك.

- لماذا؟ أليس من حقنا أن نحلم؟ أن نأمل في غد أفضل؟

- أحلام الفقراء لا تتحقق ... لهذا؛ لا يحق لنا أن نحلم، حتى لا نيأس من الحياة ... سراب تلو سراب، خيبة أمل تلو الأخرى ...

أحلامنا ستودي بنا قطعًا إلى قتل أنفسنا هربًا من الإحباط الذي يطبق على صدورنا.

سكتت برهة، ثم التفتت إلى (هدى) قائلة:

- إذا حدث لي مكروه، عديني أن تهتمي بـ(رضا)، ولا تتركيه مهما حدث.

نظرت لها (هدى) باستنكار، فأكملت:

- أعلم ... أعلم أنك دائمًا بجواره، أعلم أنه يعتبرك أخته وأمه، حتى قبلي أنا ... فأنا يا ابنتي لم أكن موجودة دائمًا، بل كنت أنت ... لم أكن حاضرة في كثير من الأحيان، بل كنت أنت ... ولكن فقط عديني، حتى عندما تتزوجين، لا تتركيه.

قالت (هدى) باستنكار:

- أتزوج؟؟!!

- بالقطع ... يومًا ما ستتزوجين، وهل تنوين أن تظلي هكذا طوال العمر؟

- لا أفكر في الزواج أساسًا.

- لماذا يا ابنتي؟

- إذا تزوجت رجلاً فقيرًا، فسوف يعاني أبناؤنا، كما نعاني نحن، وإذا تزوجته غنيًا، فهذا لن يكون زواجًا، بل صفقة، وعادة يخسر الطرف الأضعف فيها، وهذا الطرف سيكون أنا بالتأكيد.

ساد الصمت بينهما، عادت (إجلال) تراقب الشارع المزدحم، كعادتها ترى مشهدًا من فيلم صامت بالأسود والرمادي، تنتظر المجهول.

دائمًا تنتظر.

***

اقترب أول الشهر، لم يتبق عليه سوى أربعة أيام، منتظرة قدوم (هدى) من عملها مصطحبة (رضا) من الجامعة تكومت (إجلال) في أحد أركان الغرفة، تسند رأسها على راحة يدها، سمعت طرقًا على باب الغرفة، قامت متثاقلة تفتح الباب، فإذا بها السيدة (سهير)، السيدة المسنة التي تسكن بالدور الثاني، والتي كانت من أول ساكني البناية، تقف بصعوبة متكئة على عصاها الخشبي قائلة:

- سمعت صدفة من أحد السكان بأنكم سترحلون، وسيجلبون بوابًا جديدًا بدلاً منكم، هل هذا الكلام صحيح؟

فردت (إجلال) بأسى:

- نعم.

- إلى أين سترحلون؟

- لا أعرف ... ربما سنلقى في الشارع.

- أليس لكم مكان آخر تذهبون إليه؟

- لا ...

- كيف ذلك؟

- لا أحد يبال.

هزت (سهير) رأسها في أسى، وقالت:

- أليس في قلوب الناس رحمة؟

- نزعت منذ زمن.

- يجب أن يكون هناك حل.

- ليس لنا ملاذ إلا الله.

تنهدت (سهير)، ثم قالت:

- اسمعي يا أم (هدى)، هناك الغرفة المغلقة فوق السطوح، بالقطع تعرفينها، لقد بناها صاحب العقار منذ فترة؛ لأنه كان يحب تربية الكلاب، وكان يضع بها كلبين عندما كان يسكن بالمبنى، ولكنه عندما باع كل شقق العقار بما فيها شقته، انتقل للعيش في فيلا بـ "التجمع الخامس"، اصطحب معه كلبيه وقام بغلق هذه الغرفة، إن مساحتها تقارب مساحة هذه الغرفة، ملحق بها حمام صغير، أعتقد أنه يحتاج فقط بعض التجهيزات، سأتحدث معه، ربما يوافق أن تنتقلوا للعيش فيها.

فقالت (إجلال):

- ليت هذا يحدث، ولكن ما المقابل؟

- دعيني أتحدث معه أولًا، فأنا أعرفه منذ زمن، وأعلم أنه سيعمل لي خاطرًا.

أخرجت (سهير) من حقيبتها تليفونًا محمولًا صغيرًا، واتصلت على صاحب العقار، بدأت تشرح له موقف (إجلال) وأبنائها، بدا أن الرجل يرفض في بادئ الأمر، فابتعدت (سهير) قليلًا وعادت تتحدث بصوت خافت حتى لا تسمعها، استمر الحوار كثيرًا حتى بدأ اليأس يدب في نفس (إجلال)، عادت تتكوم داخل الغرفة، واضعة رأسها على راحة يدها، مرت الدقائق ثقيلة كالجبال، حتى دخلت عليها (سهير) قائلة بسعادة:

- لقد وافق أخيرًا أن يؤجر لكم الغرفة، ولكنه لن يكتب عقدًا؛ لأن الغرفة لا يستطيع تأجيرها وفقًا للقانون.

بسعادة مبتورة قالت (إجلال):

- بكم سيؤجرها لنا؟

- بمبلغ ليس كبيرًا، على كل حال لا تشغلي بالك، لقد اتفقت معه أن أتحمل أنا الإيجار عنكم.

- حمدًا لله ... لا أعرف كيف أشكرك يا ست (سهير)، لقد أنقذتنا من الضياع.

فقالت (سهير) وهي تنصرف بخطوات بطيئة:

- لا داعي للشكر يا أم (هدى)، إذا لم يقف الناس بجوار بعضهم البعض، فلا يستحق أن يطلق علينا بني آدم.

أخذت (إجلال) تحمد الله كثيرًا، ما زال الخير موجودًا، وإن تاه وسط ضجيج الأنانية.

عندما وصلت (هدى) زفت إليها (إجلال) البشرى، فقالت الأولى بأسى:

- نعيش دائمًا على الحافة، يتم إنعاشنا لنعود إلى الحياة في اللحظات الأخيرة.

- إنه ستر الله.

- إنه ظلم البشر.

فقالت (إجلال) باستنكار:

- ألا ترضين أبدًا؟

- وما الذي يرضي في هذه الحياة؟ مصيرنا إلى غرفة الكلاب.

- أفضل من أن نلقى في الشارع، احمدي الله يا ابنتي.

تنهدت (هدى) قائلة بشرود:

- الحمد لله على كل حال ... الحمد لله.

(21)

صعدنا أنا وأمي و(هدى) لتنظيف الغرفة التي تقبع فوق سطح البناية، لم يكن تنظيفها صعبًا، فقط رفعنا بعض الأواني المعدنية التي تحتوى على بقايا طعام الكلاب المتعفن، وتخلصنا من بعض الرمال التي تحوي الروث والمكومة في أحد أركان الغرفة، مساحة الغرفة جيدة، تقارب مساحة الغرفة التي كنا نسكن بها، بها نافذتان متقابلتان، لا يوجد بهما زجاج أو شيش، فقط قضبان معدنية سميكة، قمنا بلصق بعض الورق المقوى عليهما حتى يحمينا من برد الشتاء، على الجانب الآخر من السطح هناك غرفة أخرى صغيرة مشيدة بالطوب الأحمر، بلا سقف، لا يوجد بها سوى صنبور واحد وبالوعة، من المفترض أن تكون هذه الغرفة هي دورة المياه، علمت من أمي أن بعض السكان من أهل الخير قد تبرعوا لشراء قاعدة حمام وحوض، وأحضروا السباك لتركيبهما، كما تم شراء لوح خشبي لتثبيته مكان السقف، بعد يومين بدأنا في نقل متاعنا، لم يكن كثيرًا، حيث تركنا الثلاجة والتلفاز؛ لأنهما ليسا ملكنا من الأساس.

عدت إلى جامعتي، إلى كليتي، إلى دراستي وكتبي، حرصت على حضور كل العروض المسرحية التي يقدمها فريق الكلية وكل فرق الكليات الأخرى، كنت أستمتع بها كثيرًا، كم تمنيت ألا أكون من الجالسين في صالة العرض، ألا أكون من المشاهدين، بل أكون أنا من يقف على خشبة المسرح، يؤدي دور "يانيك" في مسرحية

"العادلون"، ليس "ستيبان" فهو إنسان شرير بلا قلب، يكره حياته ولا يحب الأطفال، أو دور الأب "توت" في مسرحية "عائلة توت"، أو "شحاتة" في مسرحية "الهلافيت"، أقنعت (هدى) بأن تصحبني إلى إحدى المكتبات لأبتاع مجموعة من المسرحيات لقراءتها، وافقت بعد أن أخبرتها بأنني لن أبدأ في قراءتهم إلا في إجازة الصيف بعد انتهاء العام الدراسي، لم يكن معها ما يكفي من المال لشراء كل الكتب التي أردتها، فاكتفينا ببعض المسرحيات الشهيرة لـ"وليام شكسبير"، "هاملت"، "حلم ليلة صيف"، "ماكبث" و"ترويض الشرسة"، بعد خروجنا من المكتبة قالت لي:

- لن يكون هناك أرز وملوخية حتى نهاية الشهر يا (رضا)، طعامنا هو العدس ... العدس فقط.

فقلت:

- ولكنني لا أحب العدس، هل من الممكن أن آكل شطائر الجبنة بالطماطم كأيام الدراسة.

هزت رأسها نفيًا، وقالت:

- حتى الجبنة بالطماطم أصبحت من الرفاهية، سيصعب علينا شراؤها، على كل حال، سنرى ماذا سيحدث.

فقلت:

- إذن ... سأكتفي بالبليلة.

- في الإفطار والغداء؟ فقط البليلة؟

- نعم.

هزت كتفيها قائلة بأسى:

- لا بأس.

منذ سنوات نكتفي بوجبتين فقط، الإفطار حتى نستطيع العمل، أما الغداء أو العشاء فيكفي أحدهما، عادة ما نتناول وجبة الغداء بعد المغرب حتى لا نجوع مرة أخرى في نفس اليوم، أصبحت أمي تطهو البليلة في المنزل، فلم يعد أحد يبيعها منذ توفي عم (يوسف).

بدأ المرض ينهش في جسد أمي، أصبح جسدها واهنًا وحركتها ثقيلة، لا تترك الغرفة إلا للذهاب إلى الحمام، يدها ترتعش وهي تحاول إشعال الموقد، تكاد الأواني تسقط من يدها وهي تعد لنا الطعام، لا تقوى على فرك الملابس جيدًا لتنظيفها، تحاول (هدى) إثناءها عن القيام بأعمال المنزل، ولكن تأبى إلا أن تفعل، ودائمًا تقول:

- طالما بي نفس واحد أتنفسه، فسأظل أعد لكم الطعام وأغسل ملابسكم، من تعود على الشقاء تقتله الراحة.

انقضى فصل الربيع وبدأ الصيف، أصبحت أمي لا تقوى على حرارة الغرفة، في السابق لم نكن نشعر بحرارة الصيف، حيث الغرفتان السابقتان لم تكن الشمس تزورهما قط، أما هذه الغرفة فوق السطح، فالشمس تحتضنها، تضرب جدرانها من كل اتجاه، اضطرت (هدى) لشراء مروحة كهربائية، لتعود قائلة لي:

- لن يكون هناك أرز وملوخية حتى نهاية الشهر يا (رضا)، مرة أخرى سيكون طعامك هو البليلة ... فقط البليلة.

في أحد الأيام، كنت أجلس بجوار أمي التي انهمكت في إعداد الطعام قبل أن تعود (هدى) من العمل، أستمتع بنسمات الهواء القادمة من المروحة وأعيش مع مسرحية "حلم ليلة صيف"، سمعنا طرقًا على باب الغرفة، فتحت الباب فإذا به (علي بالوظة)، كان يعمل صبيًا في ورشة عم (محمود) الميكانيكي بشارع "الحايس" والمجاورة لغرفتنا السابقة بشارع "عمر شاهين"، لم يكن لنا اختلاط كبير به، كانت معرفتنا به سطحية، لذا؛ اندهشت أمي عندما رأته، ولكنها لا تستطيع أن ترد أحدًا طرق بابنا فدعته للدخول، جلس على طرف الفراش وبدأ بالسؤال عن أحوالنا، ثم بدا يتحدث عن نفسه وأنه قد ترك عم (محمود) منذ فترة، وأنه يدير ورشته الخاصة الآن والتي تقع بشارع "توفيق حنا" المتفرع من شارع "شبرا"، وقد قام بتأجير شقة في شارع "منية السيرج" ليتزوج بها، كانت أمي قد أعدت له كوبًا من الشاي ووضعته أمامه، التقطه وبدأ يرشف منه بصوت مرتفع قائلاً:

- تسلم يدك يا حاجة، سأدخل في الموضوع مباشرة، أنا أعرفكم منذ زمن بعيد، وأعرف أنكم أناس طيبون، وأنا رجل مباشر وأريد دخول البيت من بابه، أنا أطلب منك يد (هدى).

لم تبد أمي أي ردة فعل، وإنما أومأت برأسها قائلة:

- لقد فاجأتني بهذا الطلب، على كل حال، سوف أستشيرها عندما تعود من العمل.

فقال:

- عندما نتزوج لن تضطر إلى العمل أبدًا، سأجعلها سيدة للمنزل، أعلم حالكم جيدًا، وسأتكفل بكل مصاريف الزواج، لا تشغلي بالك بأي شيء.

اكتفت أمي بقول:

- ربنا يقدم ما به الخير.

تركنا وانصرف بوعد أن يأتي مرة أخرى لسماع البشارة، في المساء انتظرت أمي حتى فرغت (هدى) من طعامها، فقالت لها:

- لقد زارني اليوم (علي) الميكانيكي، أتذكرينه؟

فقالت (هدى):

- نعم، (علي بالوظة) الذي كان يعمل صبيًا لـ(محمود) الميكانيكي، لقد قابلته صدفة منذ يومين، سلم علي بسعادة، وسألني عن أحوالنا، وعن مكان إقامتنا، به الخير أن جاء لزيارتك.

- لقد طلب يدك مني.

فقالت (هدى) بانزعاج:

- ماذا؟

- وما في ذلك؟

- إنه جاهل، لا يعرف القراءة والكتابة.

- ولكنه يكسب جيدًا.

- إذا أردت بيع نفسي، فسأبيعها لمن يدفع مقابلها الكثير، ليس لمن يلقي تحت قدمي الفتات، لأجثو على الأرض وألعقه بلساني.

- يا ابنتي ... أريد أن أراك عروسة قبل أن أموت.

- بهذه الطريقة أنت تريدين دفني أنا، حتى قبل أن أموت.

كان رد (هدى) واضحًا وصريحًا: "لن أقبل بهذه الزيجة"، وإصرارها أرغم أمي على الاستسلام، بعد يومين زارنا (علي) مرة أخرى، وكان رد أمي:

- كل شيء قسمة ونصيب يا بني.

تركنا وهو يستشيط غضبًا، من الصعب أن تكون واثقًا تمامًا من أمر وتصطدم بحائط الخذلان، عندما عادت (هدى) من العمل في ذلك اليوم بدا على ملامحها أقسى إمارات الخوف والرعب، كان وجهها شديد الحمرة، يتصبب عرقًا، وجسدها ينتفض، اندفعت داخل الغرفة، وانهارت في البكاء، فسألتها أمي بصوت أشبه بالصراخ:

- ماذا هنالك يا ابنتي؟ ماذا بك؟

فأجابت والكلمات تخرج من فمها بصعوبة:

- هذا الكائن الحقير المسمى (علي بالوظة)، كان ينتظرني في الطريق، استوقفني، وحاول أن يقنعني بالزواج منه، في بادئ الأمر كان هادئًا ولطيفًا، ولكنني عندما أخبرته بأنني لا أريد الزواج منه تحول فجأة، بدأ صوته في الارتفاع، صاح بي: "أنت يا ابنة البواب ... يا ابنة الخادمة ... لا تريدين الزواج مني؟"، بدأ يسبني بأفظع الألفاظ، وعندما تركته ومضيت لحق بي، ثم صفعني على وجهي، فسقطت على الأرض، وعندما حاولت النهوض بدأ بالاعتداء علي بالركل واللكمات، كاد أن يفتك بي لولا تدخل بعض المارة، لكان قتلني بالفعل.

قامت أمي بصعوبة، ووضعت طرحتها على رأسها، وهمت بمغادرة الغرفة، فأمسكت بها (هدى) قائلة:

- إلى أين؟

فقالت أمي بعصبية:

- سأذهب إلى هذا الحيوان لأعرفه مقامه.

فصرخت فيها (هدى):

- لا يا أمي ... بالله عليك لا تفعلي ... هذه المخلوقات لن تعطي للسن مقامًا.

- لقد صرنا بلا ظهر أو سند بعد أن مات أبوك.

فقلت لهما:

- وأنا؟! أنا موجود ... وإذا كان أحد سيسترد حقك ... فسيكون أنا.

كنت أنوي بالفعل أن أذهب إلى (بالوظة) وأضربه، ولكن (هدى) قبضت على ساعدي بقوة لتمنعني، وصرخت أمي في:

- لا يا (رضا) ... لا نريد أن نفقدك كما فقدنا أباك.

ثم ألقت طرحتها على الفراش، وقالت لـ(هدى):

- لنا الله يا ابنتي ... سأغرف لك الطعام.

تمددت (هدى) على الفراش قائلة:

- لا ... لن أستطيع تناول أي شيء الآن ... أريد الخلود إلى النوم.

جلست على الفراش بجوارها، وأخذت أداعب خصلات شعرها حتى راحت في النوم، ودموعها تبلل الوسادة تحت رأسها.

شعرت بالضعف، لأول مرة في حياتي أشعر بالقهر، تعرضت لكثير من المواقف المربكة، تعرضت للضرب والركل والإلقاء بالحجارة، تعرضت للسب والنعت بالعبيط والأهبل والمنغولي، كثيرًا ما كنت أبكي من الألم، ولكنني لم أشعر بالقهر كما أشعر به الآن، كنت أركض إلى أمي أو أبي لأشعر معهما بالأمان، أختبئ في حضنهما من قذف الكلمات والحجارة، أهرع إلى (هدى) لأشتكي لها، فتهون علي ما أصابني، الآن من سيهون عليها ما هي فيه، لست أهلاً لحمايتها، لست أهلاً لاحتضانها، لست أهلاً لأمنع عنها صفعات المسوخ وركلات الزمن.

(22)

اجتاز (رضا) السنة الثانية من الجامعة بتفوق، مكنه من أن يحصد المركز الأول على دفعته، ومع احتماء شمس الصيف لعام 2016 بدأ المرض يبلغ من (إجلال) ما لم تستطع معه الوقوف أو حتى مغادرة الفراش، كان (رضا) يحملها على ظهره كلما أرادت الذهاب إلى دورة المياه، ضعف قلبها، ونخرت الهشاشة عظامها، وأصابت القرحة أصابع قدمها اليسرى، لتتحول إلى غرغرينا، وبدأت في الانتشار حتى ضربت كامل القدم، ليصبح بترها من منطقة عظمة الشظية ضرورة نبههم لها الطبيب حتى لا يضطروا فيما بعد لبتر القدم بالكامل من فوق الركبة، رفضت (إجلال) في بادئ الأمر، كانت تقول:

- الموت أهون لي من أن أفقد قدمي.

رغم أنها لم تعد قادرة على وضعها على الأرض، ولكن الطبيب قال لها:

- لقد فقدتها بالفعل، وإن لم يتم بترها في أسرع وقت فستفقدين باقي جسدك، سنضعك على قائمة الانتظار، وإن شاء الله لن تطول.

فردت بسخرية:

- لقد تم وضع (رضا) على قائمة الانتظار منذ ثلاثة عشر عامًا لإجراء جراحة في القلب، ولم يأت دوره حتى الآن، واضح أنهم نسوه، أو تناسوه عمدًا.

فقال الطبيب:

- عمليات البتر أسهل من جراحات القلب، والقائمة بها ليست طويلة، كما أن حالتك عاجلة لا تستوجب الانتظار.

مر اليوم تلو الآخر، والأسبوع خلف الأسبوع، وانقضى ثلاثة أشهر، ولم يأت دور (إجلال)، يحملها (رضا) على ظهره ويطوف بين المستشفيات ووحدات التأمين الصحي ومكاتب الموظفين للحصول على الموافقات الخاصة بالعلاج المجاني.

أخيرًا وفي الشهر الرابع عادت (إجلال) إلى غرفتها، يحملها (رضا) على ظهره، بعد أن تركت قدمها اليسرى فوق كومة من نفايات المستشفى، لتحتل مكانها ضمادة تغطي جرحًا من الصعب اِلْتئامه مع تمكُّن مرض السكري منها، كانت تشفق على (رضا) بجسده النحيل من كل هذا الحمل، إلا أن إرادته كانت أقوى من عضلاته الضعيفة.

مع بداية الشتاء جاءهم خبر وفاة السيدة (سهير)، ليأتي إليهم (سيد) البواب الجديد للبناية في أول أيام الشهر مطالبًا بسداد إيجار الغرفة، والذي كانت (سهير) تسدده عنهم، وينصرف بعد أن تحصل عليه كاملاً.

قال لهم قبل أن يمضي:

- قرر صاحب البناية أن يرفع الإيجار من خمسمائة إلى سبعمائة جنيهًا مع أول شهور السنة القادمة.

أبدت (هدى) اعتراضها، فاستطرد (سيد) بغلظة:

- هذه الغرفة تساوي أكثر من ذلك، على الأقل تساوي ألفًا من الجنيهات، إن صاحب البناية يكرمكم بهذا الإيجار الزهيد، يكفي أنكم لا تشتركون في مصروفات صيانة المصعد أو البناية.

مع انصرافه نظرت (هدى) لـ(رضا) وقالت بأسى:

- يبدو أننا سنكتفي بوجبة الإفطار ما بقي لنا من العمر.

قالت (إجلال) بصوت واهن وهي مستلقية على الفراش:

- لا تبتاعي لي الدواء بعد الآن، إن ثمنه غال.

فقالت (هدى) بحدة:

- لا يا أمي ... نستطيع تحمل الجوع، ولكنك لن تستطيعي تحمل المرض.

- تحملت ما هو أكثر.

- إلا المرض.

- الله هو الشافي يا ابنتي.

- فلنأخذ بالأسباب، لن نموت من الجوع.

- ولكنني سوف أموت، بالدواء أو بدونه ... سوف أموت.

- لا تقولي ذلك يا أمي، بعدًا للشر.

- لكل أجل كتاب.

يبدو أن (إجلال) كانت تشعر باقتراب أجلها، تكررت توصيتها لابنتها أن تهتم بـ(رضا)، وألا تتركه وحيدًا، حتى اشتدت وطأة الشتاء عندما وهنت (إجلال)، وبدأت ترفض الطعام والشراب، ضعف قلبها كثيرًا، ومع نهاية الشهر الأخير من العام استسلمت للموت.

ظهر إخوة (صالح) مرة أخرى، ومعهم بعض أقارب (إجلال) ممن يراهم (رضا) لأول مرة، اصطحبوا جسدها، وهذه المرة صحبوا معهم (هدى) و(رضا)، وعلى باب القبر وقف (متولي) شقيق (صالح) الأكبر ليربت على كتف (رضا) الذي انتفض متراجعًا، فقال له عمه:

- شد حيلك يا (رضا)، يجب أن تتمالك نفسك، حيث إنك ستحمل جسد والدتك وتنزل به القبر، فلا يصح أن يلمسها أحد من غير محارمها.

أشار لشابين يقفان بجوار النعش قائلاً:

- هذان هما (محمد) و(محمود) أبناء (صفية) أخت والدتك، سيقومون بمساعدتك على حملها.

فقال (رضا) منفعلاً:

- لن يحملها معي أحد.

مد يديه صوب النعش، وحمل جسد (إجلال)، وتقدم نحو القبر، كاد أن يسقط وهو يخطو فوق الدرجات الهابطة، لحقه أحد الشابين ليسنده، ولكنه توازن مرة أخرى، ودفع يد الشاب وأكمل الخطى للأسفل، استقبله حارس المقابر والذي أشار له بأن يُسجيها على جانبها، ثم وضع بعضًا من قوالب الطوب خلفها وتحت رأسها، أشار له بعد ذلك بأن يفتح الجزء العلوي من الكفن حتى يكشف وجهها ليترك القبر ويصعد انتظارًا أن ينهي (رضا) آخر مهامه ويصعد خلفه، انتظر مدة ليست بالقصيرة، ولكن (رضا) لم يصعد، فنزل درجتين وهتف فيه بصوت خفيض:

- هيا يا أستاذ ... نريد غلق القبر.

ولكن لم يتلق إجابة، فأشار لأحد الشابين أن ينزل ليتفقد سبب تأخره، نزل الشاب فوجد (رضا) جالسًا على الأرض بجوار جسد والدته، يدفن رأسه بين يديه ويبكي بشدة.

طوال الطريق إلى المقابر ظل (رضا) صامتًا، صامدًا، ولكنه انهار فجأة، عندما حانت اللحظة التي أدرك فيها أنه يجب أن يفترق عنها، كانت تتركه كثيرًا، تذهب لِتَبْتَاع المشتريات من السوق لهم أو لساكني البناية، تذهب لعملها في أحد المنازل، ولكنه كان دائمًا يثق في أنها ستعود، تركها كثيرًا ليذهب إلى مدرسته أو كليته، ولكنه كان دائمًا يثق في أنه سيعود ليجدها تستقبله بطبق الأرز والملوخية أو طبق البليلة باللبن، ولكنه أيقن الآن من أنه سيتركها وحدها في هذا

القبر الموحش، وبلا رجعة، سيحكمون إغلاقه عليها، ولن يستطيع حتى أن ينزل ليراها مرة أخرى، فانفجر بالبكاء.

تقدم الشاب منه قائلاً:

- لا ينفع ما تفعله الآن، لن ينفعها إلا الدعاء، ادْعُ لها بالرحمة، هيا لنخرج، اتركها إكرامًا لها، بالتأكيد هي الآن في مكان أفضل.

لم يسمع (رضا) حرفًا واحدًا مما قاله ابن خالته، بل ظل في مكانه يبكي، استمرت محاولاتهم قرابة الساعة، حتى أقنعوه بأن يترك القبر ويخرج، ثم بدأوا في إغلاقه، وقف أحد الشيوخ يلقي عظة قصيرة عن الحياة والموت وما بعد القبر، ثم بدأ يدعو لها بالرحمة ووقف الجميع خلفه يؤمّنون، نظر (رضا) حوله، بحث عن أي شخص يعرفه فلم يجد، كل الوجوه يراها للمرة الأولى، أتموا إغلاق القبر وانتهى الشيخ من دعائه، فأوقفه عمه بجواره، وبدأ الناس يمرون عليه ليواسوه: "شد حيلك"، "البقاء لله"، وعمه بجواره يردد: "شكر الله سعيكم"، كلمات يسمعها لأول مرة، أشخاص لا يعرفهم يصافحونه، من المفترض أنهم أقاربه وعزوته وأهل قريته، من هم؟ وأين كانوا؟ ولماذا جاءوا؟ وهل سيبقون أم سيرحلون ولن يراهم مرة أخرى؟

رحلوا، وانقضت الجنازة، سحبوه إلى منزل أحد أقربائه بالقرية، وضعوا أمامه الطعام، ولكنه رفض الأكل تمامًا، لم يعتد الأكل من أي شخص غير والدته، كما أن الطعام لم يوجد به الأرز والملوخية، بعد صلاة العصر أوصلوه و(هدى) إلى إحدى سيارات الأجرة التي تتجه نحو القاهرة، عادا وحيديْن تتلقفهما أمواج البشر بميدان "الجيزة"،

ليستقلا مترو الأنفاق حتى غرفتهما القابعة فوق سطح البناية الكبيرة بشارع "شبرا".

جلس (رضا) على الفراش حيث كانت تنام والدته وعاود البكاء بحرارة، لم تستطع (هدى) أن تتمالك نفسها هي الأخرى، فجلست بجواره، احتضنته، وانهمرت بدورها في البكاء.

(23)

مرت الأيام كئيبة، ثقيلة على (رضا) وأخته، ما يقارب نصف مرتب (هدى) يتحصل عليه (سيد) ليرسله إلى صاحب البناية، والنصف الآخر بالكاد يكفي مصروفات انتقالاتهم، ووجبة واحدة من البليلة باللبن المخلوط بالماء، حتى (هدى) كانت تشارك أخاها في الإفطار، وتوقفت عن تناول أي شيء آخر غصبًا وليس بإرادتها، أما الكتب الخاصة بدراسة (رضا) بالكلية، لم تستطع تحمل تكلفة شرائها أو حتى تصويرها، فكانت تذهب إلى أحد زملائه لتقترض منه الكتاب، ويجلسا طوال الليل ينقلونه، يخطانه على أوراق بيضاء، تلخص له ما تستطيع تلخيصه، وبعضها يتعاونان على نقله كاملاً، كلمة تلو كلمة، أحيانًا كانا يواصلان حتى الصباح كي تعيد (هدى) الكتاب إلى صاحبه دون تأخير.

في أحد الأيام كانا يجلسان على الطبلية، يخط (رضا) أحد الكتب الخاصة بفنون الشعر الأندلسي، و(هدى) تحاول تلخيص كتابًا له عن فقه اللغة العربية، فسألها (رضا) عن (صفية) وأبنائها، لم يكن يعلم من الأساس بأن له خالة، ولم يأت ذكرها من والدته قط، فقالت له (هدى):

- بالفعل، والدتنا لها أخت غير شقيقة، إنها أختها من الوالد فقط، ولكن علاقتهما لم تكن جيدة، كانتا هي ووالدتها يسيئان معاملة أمنا، وتزوجت (صفية) من رجل ميسور الحال، فانقطعت

صلتهما تمامًا حتى إن (صفية) كانت تخجل من مجرد ذكر أختها (إجلال)؛ لأنها تزوجت من بواب فقير، هذا هو الحال يا أخي، حتى صلة الرحم، يصلها المال ويقطعها ضيق الحال.

مرت السنة الثالثة من الجامعة، نجح (رضا) كعادته بتفوق، وكان الأول على دفعته، ساعده على ذلك قدرته الفائقة على حفظ النصوص وإتقانه لقواعد النحو والصرف، وفي السنة الرابعة ذاع صيته بين زملائه، كان الكثير منهم يلجأ إليه إذا صعب عليه شيءٌ من المنهج، وأراد تفسيرًا له، وكان أسلوب (رضا) في الشرح بسيطًا ورائعًا، خاصة أنه كان يشرح لزملائه بطريقة تعبيرية وحركية، وكأنه يقف على خشبة المسرح يؤدي دورًا تمثيليًا.

بعضهم كان يقوم بتصوير الملخصات التي كانت (هدى) تعدها له، حتى إن بعض المدرسين بالكلية بدأوا يغارون منه؛ لأن ملخصاتهم ومذكراتهم المتوفرة بالمكتبات التي تحاوط الكلية لا يباع منها الكثير، فأغلب الطلبة كانوا يتناقلون ملخصات (رضا)، وأصبحت هي مصادر استذكارهم لما فيها من إفادة وشمول لكل جوانب المناهج الدراسية.

كان (رضا) سعيدًا بالتفاف الطلبة حوله، ولكنه لا يزال يشعر بالوحدة طوال الوقت، ينظر كثيرًا في ساعته الرقمية انتظارًا لانتهاء (هدى) من عملها وقدومها لاصطحابه، كان يفتقد بينهم الصديق، يفتقد (حمزة) ولعبهما للكرة في مدخل البناية القديمة، وحديثهما

بالساعات وهما يجلسان على الدرج، زملاء كثيرون، ولكن ليس بينهم صديق واحد.

مع بداية صيف عام 2018 ذهبا سويًا لرؤية نتائج (رضا) للسنة الرابعة، منذ دخولهم من باب الكلية وزملاؤه يهنئونه بالنجاح، ولكن (هدى) كانت تريد رؤية الكشف بعينيها، وبالفعل وصلا إلى لوحة النتائج.

(رضا صالح عبد الغفار إبراهيم) ناجح، حاصل على ليسانس الآداب قسم اللغة العربية بتقدير امتياز، وترتيبه الأول على دفعته.

ارتفع صوت (رضا) في فناء الكلية:

- لقد نجحت ... أنا الأول ... أنا الأول.

رقص قلب (هدى) فرحًا، احتضنته، وانهمرت في بكاء هيستيري، حمدت الله كثيرًا؛ لأن دفعته لم يكن بها ابن أستاذ أو ابنة وكيلٍ للكلية، ولكنها تذكرت ما حدث معها، فانطفأت نيران فرحتها، تردد في نفسها سؤال جثم على صدرها، ألقى بأطنان من الملح فوق جرحها الذي لم يلتئم فألهبه، وماذا بعد؟ الشك كفيل بقتل كل سعادة الدنيا.

لم تكن (هدى) متشائمة بقدر ما هي واقعية، علمتها حياتها أن الأحلام كالسحب، لن يتمكن الإنسان من إدراكها إلا إذا استطاع شراء تذكرة طائرة.

بالفعل تم رفض تعيين (رضا) كمعيد بالجامعة، والأسباب واضحة لا تخفى على أحد، وقد قالها لها أحد المسؤولين مباشرة:

- كيف نأتمن شخصًا نوكل له الاهتمام بالطلبة ورعايتهم، وهو نفسه يحتاج لمن يهتم به ويرعاه.

تعددت الأسباب، والرفض واحد، والظلم له وجوه كثيرة، أما العدل فغاب وجهه وانطفأت مشاعله، ولكن (هدى) لن تستلم هذه المرة، اكتفت من الاستسلام والخنوع، كل هذا المجهود لن يضيع هباءً مهما كلف الأمر.

عادت في هذا اليوم وهي تلعن كل الظروف التي جعلتهم يتسولون حقوقهم ولا يحصلون عليها، كانت ترى في (رضا) أملها الوحيد في حياة مختلفة، ولهذا؛ لن تسمح بأن يحدث مع أخيها ما حدث معها، يجب أن تقوم بمقاضاة الجامعة مطالبة بحصول (رضا) على حقوقه في أن يعين كمعيد، ولكنها لا تملك المال الكاف لفعل ذلك، فحتى استرداد الحقوق أصبح مكلفًا.

لجأت (هدى) إلى إحدى زميلاتها بالعمل، حيث إن لها عدة أقرباء يعملون كمحامين، وبالفعل بعد بعض المكالمات الهاتفية أخبرتها زميلتها بأن أحدهم قد قبل بأن يقوم بهذا العمل متطوعًا دون مقابل، وأنه ينتظرهم اليوم في مكتبه.

صحبتها زميلتها إلى مكتب خالها المحامي (محمود عبد الرحمن)، صادف أن المكتب يقع في حي "شبرا" بأحد الأبنية القديمة بشارع

"روض الفرج"، مكتب صغير بغرفة واحدة وصالة استقبال أقرب للردهة، إلا أنه ينم عن ذوق رفيع، كانت (هدى) تتوقع أن تقابل رجلاً كبيرًا في السن إلا أنها وجدت نفسها أمام شاب في منتصف الثلاثينات من العمر، ممتلئ الجسد قليلاً، ذو قسمات حادة وهالات سوداء تقبع تحت عيون مطفية، لا تفارق لفافة التبغ يده، وقد امتلأت منفضة السجائر بعشرات من الأعقاب المستهلكة، ولكنه يداوي كل ذلك بابتسامة مريحة بعثت قليلاً من الطمأنينة في قلب (هدى)، والتي حكت له الموقف باختصار، وشرحت له عدم قدرتها على تحمل أي مصروفات خاصة بالتقاضي أو حتى أتعابه الشخصية، هز رأسه في تفهم ثم قال:

- سأقبل القضية لثلاثة أسباب، أولها أنكم جيراننا من سكان "شبرا"، وأنا أيضًا رجل "شبراوي"، ولدت وعشت بها كل حياتي، ثانيًا أنني أتعاطف مع حالة أخيك، يجب أن يحصل على حقه كاملاً، مثله مثل أي إنسان طبيعي، ثالثًا أنها قضية ليست بالصعبة، فمن حسن حظكم أنه قد صدر قانون في فبراير الماضي خاص بحقوق الأشخاص ذوي الإعاقة.

قاطعته (هدى) قائلة:

- ولكن (رضا) ليس معاقًا، إنه من متلازمة "داون"، هو فقط مختلف.

أومأ برأسه قائلاً:

- مفهوم ... مفهوم ... ولكن القانون يصنفه من ذوي الإعاقة، على كل حال سأقوم بعمل اللازم، وسأكون معكم خطوة بخطوة، لا تقلقي.

تعددت لقاءات (محمود) بـ(هدى) و(رضا)، زارهما عدة مرات في غرفتهما، تحدث مع (رضا) كثيرًا حتى صارا شبه أصدقاء، تطرق كثيرًا إلى الحديث حول حياتهما الشخصية، وظروف معيشتهما، حتى طلب من (هدى) في أحد الأيام أن تزوره في مكتبه وحدها، وبالفعل ذهبت، فبدأ حديثه مباشرة قائلاً:

- أريد الزواج منك.

بدت الدهشة واضحة على وجه (هدى)، وقالت:

- تتزوجني أنا؟ أنت لم تعرفني سوى من شهر واحد.

- هي مدة كافية بالنسبة لي.

- ولكنها ليست كافية لي.

- فكري مليًا، وخذي ما تريدين من الوقت.

- أنت تعرف ظروفي جيدًا.

أومأ برأسه قائلاً:

- نعم، وهذا من أسباب طلبي الزواج بك.

قام من فوق مكتبه، وجلس على المقعد المواجه لها، ثم استطرد:

- سأتحدث معك بشكل صريح ومباشر، أنا مطلق منذ أربعة سنوات، كانت لي تجربة سيئة مع النساء، لم تدم سوى عدة أشهر، لقد تزوجت عن قصة حب كبيرة لا داعي لسرد تفاصيلها الآن، إلا أنني بعد الزواج اكتشفت أنها شخصية أنانية، مغرورة ومتطلبة، مهما كنت أحاول إرضاءها لا ترضى، لا تجيد الأعمال المنزلية، نصف ما كنت أجنيه من أموال كان يضيع على طلبات الطعام الجاهز والوجبات السريعة، والنصف الآخر على طلباتها التي لا تنتهي، تشاجرنا كثيرًا بسبب رفضي لبعض ما كانت تطلب، ليس بخلاً مني، ولكن لأنني لم أكن أجني الأموال اللازمة لتغطية احتياجاتها التافهة من أدوات التجميل وتصفيف الشعر والملابس الكثيرة، رغم كل ذلك ظللت محافظًا على علاقتنا، ولكنها طلبت مني الطلاق، رفضت وحاولت إثناءها عن ذلك، إلا أنها رفعت علي قضية خلع، كانت هذه هي الضربة القاضية بالنسبة لي، فطلقتها بعد أن تنازلت لي عن مؤخر الصداق وكافة حقوقها، علمت بعد ذلك أنها تزوجت من رجل آخر بعد انتهاء شهور العدة مباشرة، ولهذا؛ قررت عدم الزواج مرة أخرى، إلا أنني اكتشفت أنني لن أستطيع العيش وحيدًا طوال عمري، فوضعت صوب عيني البحث عن نقيض زوجتي الأولى، هذه المرة سأبحث بعقلي لا بقلبي، أريد زوجة قوية شجاعة غير متطلبة، ترضى بقليلها، وتحيا على ما يستطيع زوجها توفيره فقط، تجيد الأعمال المنزلية وإعداد الطعام، أريد زوجة لا امرأة، تتحمل المسؤولية وتقدر الحياة الهادئة المستقرة، وجدت كل هذا فيك يا (هدى).

فقالت (هدى) بأسى:

- إذن هي صفقة.

- لا ... بل زواج واستقرار.

- أنت تبحث عن خادمة، وليس زوجة.

انزعج (محمود) من كلامها، وبدا على وجهه الغضب، إلا أنه أخفاه سريعًا، وسألها:

ما مفهومك عن الزواج؟

- التكافؤ.

- بل الملاءَمة، كنت وزوجتي الأولى متكافئين في كل شيء، المستوى الاجتماعي والمادي والتعليمي، إلا أننا لم نكن ملائمين لبعضنا، أعتقد أنها كانت تستكثر نفسها علي، اكتشفت بعد الزواج أنها أجمل من أن تربط حياتها بحياة رجل عادي، متوسط الحال فبحثت عن الأغنى.

- ولهذا؛ تبحث عمن هي أقل منك في المستوى المادي حتى ترضى، بل تسعد بك؛ لأنك سترفعها عدة درجات، على كل حال سأفكر في الأمر، ولكن هناك شرط وحيد إذا قبلت الزواج منك.

فقال دون تردد:

- (رضا)؟

فقالت:

- نعم، لن أستطيع تركه يعيش بمفرده.

فقال:

- بل يجب أن تتركيه يعيش بمفرده ويعتمد على نفسه، هو لم يعد صغيرًا، كم عمره الآن؟ ثمانية وعشرون على ما أعتقد.

فقالت بحدة:

- نعم هو ليس طفلاً صغيرًا، ولكنه يحتاج دائمًا لمن يرعاه.

- أولاً هذا هو شرطي الوحيد، أن أتزوجك وحدك وليس كلاكما، ثانيًا سيكون من الأفضل لقضيته أن يعيش بمفرده، وسنثبت ذلك في أوراق القضية، أنه يستطيع الاعتماد على نفسه، وبهذا يكون مؤتمنًا على الطلبة وجديرًا بموقعه كمعيد في الجامعة، صدقيني هذا لمصلحته ولمصلحتك.

- ولمصلحتك أنت أيضًا.

- وليكن ... إنه موقف سيخرجنا جميعًا فائزين.

طوال طريق عودتها كانت رأس (هدى) تتناطح بالأفكار، ثيران هائجة في حلبة مصارعة تدور حول (رضا)، اختفت من حولها الشوارع واندثر البشر، وبقيت (إجلال) توصيها ألا تترك أخاها وحيدًا وسط البراري، وفي موقع الملك يجلس (محمود) متفرجًا، منتظرًا، لا يرتدي تاجًا أو يمسك صولجانًا، لا تبدو عليه أمارات الملك أو وجاهة اللوردات، وإنما يرتدي حلة أنيقة برابطة عنق، وحذاء

جلديًا لامعًا، لا يقذف الأموال في الحلبة أو حتى الورود، ولكنه يجلس في موضع الأشراف من الناس.

مر عام كامل، جاء صيف عام 2019 و(هدى) لم تحسم أمرها، ولم تعطه إجابة قاطعة، وأيضًا لم تصده أو تغلق الباب، عادت في أحد الأيام من العمل، كان يومًا شاقًا شديد الحرارة، فشعرت بالجوع في أول الليل، وكالعادة لم يكن هناك طعام سوى بعض البليلة التي يبقونها لإفطار اليوم التالي، جلست على الأرض فوق الحصيرة البالية، نظرت لأخيها، وقالت:

- أتدري يا (رضا)، لقد خلق الله الملائكة للعبادة، لم يخلقوا للجدال، ولكنهم جادلوا ربهم مرة واحدة فقط عندما قال لهم بأنه سيخلق الإنسان، كانوا يعلمون أننا سنفسد في الأرض ونسفك دماء بعضنا، ولكن الله قال لهم بأنه يعلم ما لا يعلمون، أحيانًا أتساءل أنا أيضًا: "لم خلق الله الإنسان؟"، هذا المخلوق الظلوم الجهول، الذي يحمل أمانة لا يستطيع والوفاء بها، إنها حكمته التي لا يعلمها إلا هو.

فقال (رضا):

- خلقنا ليدخل الطيبين الجنة، ويدخل الأشرار النار.

- هذا هو المصير، وليس الغاية.

ثم ضمت قدميها، وأسندت ذراعيها على ركبتيها، وأراحت رأسها عليهما، وقالت بشرود:

- في الماضي عندما كنت في المرحلة الإعدادية كنا نشتاق أحيانًا لطعام به مسحة من البروتين، كانت أمي ترسلني إلى عم (راضي) بائع الدجاج، لأقف بجانب باب المتجر، وأهمس في أذنه بخجل: "أريد نصف كيلو من أرجل الدجاج"، فكان يضعهم لي في حقيبة بلاستيكية سوداء حتى لا يرى أحد ما بداخلها، ويعرف أننا لا نستطيع شراء دجاجة كاملة، ثم يضع فوقهم كثيرًا من أحشاء الدجاج بدون مقابل، فقد كانوا يلقونها في القمامة على أية حال، ولكننا كنا نأكلها حيث كانت أمي تنظفها جيدًا وتقوم بسلقها، منذ عدة أيام اشتقت لتناول وجبة من أرجل وأحشاء الدجاج، كما كانت أمي تعدها، فأنا بشر، لقد تجمدت أحشائي من أكل البليلة كل يوم، فتوجهت إلى متجر عم (راضي)، وجدته قد توفي و(عادل) ولده يقف مكانه، تقدمت منه، وهمست في أذنه: "أريد ربع كيلو من أرجل الدجاج"، فوضعهم لي في حقيبة شفافة، كدت أخجل أن ألتقطها منه، ولكنني اكتشفت أن كثيرًا من الناس صاروا يشترون أرجل الدجاج بلا خجل، طلبت منه أن يضع بعضًا من الأحشاء، ولكنه قال أن الأحشاء تباع منفصلة ... أصبح لها قيمة الآن ... كانت هناك سيدة تقف وحيدة بجوار مدخل المتجر، وقد طلبت بصوت خافت دجاجة كاملة، وضعها لها (عادل) في حقيبة سوداء حتى لا يرى أحد ما بداخلها، ويعلم أن تلك السيدة تستطيع شراء دجاجة كاملة، لقد أصبح الشيء الكامل عيبًا يستحق الإخفاء عن الأعين، وما كان يلقى في القمامة أصبح شائعًا، بل مصدرًا للفخر.

رفعت رأسها، ثم قالت:

- لن نكتفي بما يلقيه لنا الآخرون من فضلاتهم، وكأننا كلاب ضالة تقتات من القمامة.

صمتت برهة تفكر، ثم تنهدت بعمق، وقالت مباشرة:

- سأتزوج يا (رضا) ... سأتزوج من (محمود).

فقال (رضا):

- وهل ستذهبين لتعيشين معه؟

- نعم.

- وسأذهب معك؟

صمتت كثيرًا حتى بدأت دموعها في التساقط، بدا القلق على (رضا)، فكرر سؤاله، فأجابت بأسى:

- لا ... للأسف لن أستطيع.

- ستتركينني وحيدًا؟!

صمتت مرة أخرى، انهمرت دموعها حتى بللت ملابسها، تقدم (رضا) منها حاوطها بيده، وبدأ يمسحها بأنامله، أراحت رأسها على كتفه، وقالت:

- لا بأس بشيء من الضعف، لا بد من التخلي أحيانًا عمن نحب من أجل أن نعيش كالبشر، فنحن لسنا ملائكة، أنا لست ملاكًا يا (رضا) ... أنا لست ملاكًا.

تمت زيجة (هدى) و(محمود)، لم يطلب منها أن تشتري شيئًا للزواج، فقط تأتي بملابسها، كانت شقته التي تزوج بها زيجته الأولى تقع خلف مكتبه في أحد الشوارع الموازية لشارع "روض الفرج"، بأثاث كامل لا ينقصه شيء، وكانت هذه هي النقطة الفاصلة في موافقة (هدى)، أنها ستسكن بالقرب من (رضا)، ولن تتكلف أية أموال هي في الأساس لا تملكها.

(24)

ألقيت بجسدي على الفراش، أول يوم لي سأنام وحدي بالغرفة، تزوجت (هدى) وتركتني، شعرت بقبضة الوحدة تطبق على صدري، أيتها الوحدة إنك صديقي الوحيد منذ زمن، فلمَ بدأت تخنقين أنفاسي الآن؟ حاولت النوم، ولكنني لم أستطع طوال الليل، وددت لو أن هناك صوت مضخة المياه العملاقة التي كانت تجاور غرفتنا في الأسفل، تعمل فجأة فتطمئنني، نزلت وتمددت فوق الحصيرة ظنًا مني أنني لم أعتد النوم على الفراش حيث كانت تنام (هدى)، ولكنني كنت مخطئًا، ظللت أتقلب حتى سمعت آذان الفجر، توضأت وصليت، ثم جلست أشاهد شروق الشمس، تركت لي (هدى) بعض البليلة بجوار الموقد لأقوم بتسخينها والتهامها، كما اعتدت في الصباح، ولكنني لم أقم بتسخينها، وضعت عليها ما تبقى من اللبن البارد وبعض الماء، ووقفت فوق السطح أتناول الإفطار، وجدت قطًا صغيرًا ساقته أقدامه إلى السطح بحثًا عن الطعام، أخذ يتحسس قدمي ويحتك بجسده فيهما، وضعت له بعضًا من البليلة باللبن في وعاء صغير، التهمها بسرعة وكأنه لم يأكل منذ أيام، بقي في وعائي بعضٌ من الطعام، ولكنني لم أتناوله، انتظرت حتى فرغ القط من وعائه ووضعتهم له، فأنهاهم ثم تمسح مرة أخرى بقدمي، وكأنه يشكرني، ثم مضى يبحث عن حياته، عدت سجينًا داخل الغرفة، لا أملك سوى هذا المذياع القديم الخاص بوالدي، وبعض كتب الروايات والمسرحيات الجديدة والتي ابتاعها لي (محمود) مشكورًا

عندما علم بشغفي للقراءة والتمثيل لأقوم بقراءتها حتى لا أشعر بالملل من بقائي وحدي لفترات طويلة حبيسًا داخل الغرفة، كما اشترى لي هاتفًا محمولاً صغيرًا علمتني (هدى) كيف أقوم باستخدامه، مرت الأيام ثقيلة خانقة، حيث إن (هدى) و(محمود) قد سافرا إلى مدينة "الغردقة" لقضاء أسبوعين بها، تركت لي (هدى) بعض المال حتى أستطيع أن أشتري البليلة من أحد البائعين على أطراف سوق "قشقوش"، فهو الوحيد في المنطقة الذي يبيعها، مع اليوم العاشر كانت الأموال التي تركتها لي (هدى) قد نفدت، حيث كنت أضطر إلى شراء كمية أكبر من البليلة واللبن؛ لأن (مشمش) سيشاركني فيهما، هذا القط الذي أصبح يزورني كل صباح؛ لأنه يوقن بأنه سيجد طعامه معدًا في وعائه الصغير فوق السطح، كان شعره ناصع البياض يكسوه بقع كبيرة باللون البرتقالي أشبه بحبات المشمش، ولهذا؛ أسميته (مشمش)، بعد عدة أيام أصبح هو صديقي الوحيد، لم يعد يتناول طعامه ويرحل مسرعًا، بل طالت فترة بقائه على السطح، كنت أقرأ له الروايات وأقوم بأداء المشاهد المسرحية أمامه، فكان يجلس مستندًا على يديه منتبهًا لي وكأنه يفهمني، حتى كدتُّ ألمح ابتسامة على وجهه عندما قمت بأداء أحد الأدوار المضحكة، بعد انقضاء الأيام العشرة لم يعد معي أموال لشراء الطعام لكلينا، ولكنه لم يرحل ظل بجواري ينتظر، في اليوم الثالث عشر وجدته قد صعد إلى السطح وفي فمه عظمة دجاجة قد التقطها من القمامة، وضعها أمامي وتراجع للخلف، يبدو أنه يدعوني لالتهامها، ابتسمت وربتت على ظهره وأعدتها إليه، ولكنه تركها لي ورحل.

كانت (هدى) تهاتفني يوميًا للاطمئنان علي، وأخبرها بأن كل شيء على ما يرام، لم أشأ بأن أخبرها بأنني لم أتناول شيئًا منذ أيام؛ لأنني أعرف يقينًا بأنها لو علمت أمرًا كهذا ستترك إجازتها وتعود فورًا، وأنا لا أريد أن أفسد عليها سعادتها، فصوتها وكلامها كانا يدلان على أنها سعيدة، كانت تحدثني عن البحر الذي تراه للمرة الأولى، وعن الفندق الذي تقيم به، وأشكال الطعام المتنوعة التي تتناولها والتي لم تذق طعمها سابقًا، عن المركب الزجاجي الذي تشاهد منه الأسماك الملونة في القاع، أشياء وأشياء لم تكن تعتقد يومًا أنها ستفعلها، ثم تعاود نبرة الحزن تكسو كلامها عندما تخبرني بأنها تفتقدني، ثم تعدني بأنها ستصحبني معها في المرة القادمة حتى أشاهد البحر، وألقي بجسدي بين أمواجه.

سعادتها منحتني القوة لأتحمل أربعة أيام بلا طعام رغم أنني كدت أموت جوعًا، في آخر يوم ظللت بالفراش، ولم أستطع مغادرته، شعرت أن نبضات قلبي تتباطأ، حاولت ألتقط أحد الكتب من على الأرض، ولكن أعصاب ذراعي خانتني فسقط من يدي، أغمضت عيني معتقدًا أنني سأموت، ولكن وجدت باب الغرفة يفتح، عادت (هدى) من "الغردقة" وجاءت لزيارتي، عندما رأت حالتي وعرفت ما حدث عنفتني بقوة، ولكنها أعدت لي طبقًا ساخنا من الأرز مع الملوخية اشتقت له كثيرًا، وقد أحضرت معها قطعتين من حلوى الجاتوه كالتي أكلتهما يوم عرسها، كانت وجبة تستحق الانتظار بالفعل.

ظللت حبيسًا لغرفتي لأيام طويلة مللت من عدها، وشهر يتبعه شهر، تأتي (هدى) كل جمعة، تعد لي وجبة من الأرز مع الملوخية، وتترك لي بعض الأموال وتذهب، حتى بدأ جسدها يضعف وتتثاقل أنفاسها جراء الحمل، فأصبحت لا تقوى على الحركة كثيرًا، فلم تعد تأتي لزيارتي، كنت أذهب أنا أحيانًا إلى منزلها الجديد.

لم يكسر ملل هذه الشهور سوى رحلتي للبحث عن موضع لنفسي بين البشر، رحلة بين المصالح الحكومية والمستشفيات ومكاتب الصحة صحبني فيها (محمود)، حتى يثبت بالأوراق الرسمية بأنني لست شخصًا معتوهًا يستحق الرعاية اللصيقة، وأنني أستطيع القوامة على نفسي وتحمل أمانة الاهتمام بطلبة الكلية، أو على الأقل بالمواد التي سأقوم بتدريسها.

حتى جاء العام 2020 وجاء معه هذا الوباء اللعين المسمى "كورونا"، وكأن الأرض توقفت عن الدوران، هذا ما كانوا يقولونه في المذياع، ولكن متى كانت الأرض تدور أصلاً، لقد توقفت منذ مدة طويلة، توقفت منذ رحل أبي، توقفت منذ رحلت أمي، توقفت منذ تخرجي من الجامعة ورفضهم تعييني كمعيد، توقفت منذ تزوجت (هدى) وتركتني وحيدًا، لا فرق لدي بين بقاء الوباء أو رحيله، فالوباء ليس فيروسًا يمكن احتواؤه أو القضاء عليه، الوباء أصبح ظلمًا وانتشر.

وضعت (هدى) طفلة جميلة أسماها أبوها (وعد)، لم أستطع أن أراها سوى مرة واحدة بسبب حظر التجوال الذي كان مفروضًا في

الشوارع، كنت أسأل (محمود) دائمًا عن مصير القضية التي رفعها ضد الجامعة لرفضهم تعييني، فكانت إجابته أن التقاضي يأخذ وقته، ولا ننتظر حكمًا في القريب العاجل، إلا أنه وعدني بأنه لن يتخلى عني، ولن يتركني حتى أحصل على حقي كاملاً.

رغم كونه يحاول أن يطمئنني، إلا أن إجابته كانت تحبطني أكثر، كان أبي يقول أحيانًا أن وقوع البلاء خير من انتظاره، ينتابني شعور باليأس يجعلني أتمنى أن تنتهي هذه القضية حتى وإن صدر فيها الحكم بإعدامي.

مر العام بسلام وانحصر الوباء، أو هكذا كانوا يقولون، ولكنه مر بسجني داخل غرفتي ونفسي، حتى جاء شهر رمضان في أبريل من عام 2021، دعتني (هدى) للإفطار معها في أول أيام الشهر الكريم، سعدت كثيرًا عندما رأيت (وعد) وهي تخطو خطواتها الأولى، حاول (محمود) أن يجعلني أتناول أي طعام آخر بخلاف الأرز والملوخية، ولكن (هدى) قالت له باسمة:

- لا تحاول معه، إذا ضغطت عليه سيقيئ.

في اليوم التالي أرسل إليّ أحد جيراننا من سكان البناية طعام الإفطار، كان وجبة من الخضروات المطبوخة مع الأرز واللحم، ولكنني رفضتها بأدب، أخبرتهم أنني لا أتناول سوى الأرز بالملوخية وبدون أي لحوم أو دجاج، فقاموا بتغيير الخضروات إلى وعاء كبير من الملوخية، ولكنهم أصروا على وضع قطع من اللحم، تناولت إفطاري، وتركت اللحم حتى ظهر (مشمش)، وضعتهم له فالتهمهم

بسعادة كبيرة، تكرر الأمر لعدة أيام، ويبدو أن (مشمش) أيضًا أصبح يعرف موعد آذان المغرب، فيظهر على السطح انتظارًا لوجبته.

***

اليوم هو الثالث عشر من شهر رمضان، قتلتني الوحدة، قررت أن أنزل لأول مرة، دون أن أذهب لقضاء حاجة أو شراء طعام، سأنزل فقط لأمشي في الشوارع، وجدتني أمام بنايتنا القديمة في شارع "عمر شاهين"، وقفت كثيرًا أمامها، أصبحت معتمة، حتى المصباح الموجود في المدخل والذي كان والدي يحرص على تغييره كلما احترق لم يعد موجودًا، غرفتنا تحولت إلى مخزن لقطع غيار السيارات النقل المستعملة، كذلك شقة عم (رأفت)، حولها أبناؤه مخزنًا للخردة، كثير من السكان قد تركوا البناية ورحلوا، في جنح الظلام وجدت (حمزة) يخرج من البناية، عرفته رغم السنوات التي مرت، ورغم أن قسمات وجهه قد تغيرت تمامًا، نحف وجهه وجسده وقد استطالت لحيته، وتناثرت على صدره بغير تنسيق، انتظرت أن يلقي عليّ التحية، ولكنه لم يفعل، ربما قد غيرتني السنوات كما غيرته، أو ربما الظلام الذي حل بالشارع جعله لا يلاحظني، أخذت المبادرة وناديت عليه، فتوقف والتفت بتوجس، أخذ يحدق في وجهي قليلاً، ثم ابتسم، ففهمت أنه تعرف علي، سلمت عليه، فاحتضنني بحفاوة، سألني عن أحوالي وسألته عن أحواله، أخذنا نتحدث لدقائق، عندما سألته عن أخيه (حذيفة) بدا الحزن الشديد على وجهه، أخبرني أنه قد توفي في اعتصام "رابعة العدوية" عام 2013، قال لي بأن أدعو له بالرحمة؛

لأن دعوتي مستجابة، ثم انصرف بعد أن تبادلنا أرقام الهواتف المحمولة.

ساقتني قدماي إلى شارع "مراد"، أردت أن أشاهد مباراة لكرة القدم بين شباب المنطقة، لم يعد الشارع كما كان، لا يوجد به المصابيح الكثيرة التي كانت تنبئ بوجود الشهر الكريم، هناك مصباح واحد خافت على إحدى البنايات بالكاد يضيء ثلاثة أمتار، لم يعد هناك صبية يلعبون، لم يعد هناك مكان للعب الكرة من الأساس، لم يعد هناك مكان حتى لوقوف السيارات، تراصت على جانبي الطريق قطع غيار سيارات النقل الثقيل، محركات كاملة بزيوتها وشحومها يضعها أصحاب المتاجر دون الاكتراث لحرمة الطريق، لم يتركوا سوى ممر ضيق بالكاد يتسع لسيارة واحدة للمرور، شعرت بصدري يضيق، تثاقل تنفسي من رائحة الجاز والزيوت المتسخة التي تحتل مكان الهواء، أصبح الشارع كئيبًا بلا صبية يلعبون، بلا صياح وضحكات، بلا حياة ... بلا رمضان ... أو أي شهر آخر.

صادفت (عبده النعامة) قادمًا في مواجهتي، اللاعب السابق في فريق شارعنا، أسرع اللاعبين وأكثرهم رشاقة لم يظل نحيفًا كما كان، ازداد وزنه بشكل ملحوظ، وظهرت له بروز كبيرة عند منطقة البطن، ضرب الصلع معظم رأسه وخط الشيب ما تبقى منها، يحمل في يديه حقائب بلاستيكية، ويخطو بهدوء، وكأنه يجر قدميه رغمًا عنهما، مر بجواري قائلاً بصوت خفيض سمعته بصعوبة:

- كيف حالك يا (رضا)؟

لم ينتظر الرد وأكمل طريقه بخطوات متثاقلة، وكأن السنوات العشرين التي مرت صبت كل قسوتها على جسده وروحه.

مررت بشارع "حسن المغربي" حتى وصلت لزاوية شارع "الحايس"، أغلق عم (عوض) متجر الخردوات، لا أعرف إن كان حيًا حتى الآن أم رحل هو الآخر، أصبح الشارع مظلمًا بعد أن كانت تنيره إضاءة المتجر ويضج بأصوات الشباب الذين يتجمعون حوله دائمًا، أصبحت الزاوية خالية، تذكرت في العيد عندما كانت تصحبني (هدى) إلى هذا المكان حيث المراجيح، المركب التي تتحرك كبندول الساعة، وصناديق الزقازيق الدوارة والتي يدفعها عم (إبراهيم) والذي يناديه الصبية بـ"عم برغوتة"، رجل نحيف أسمر الوجه، حاد الملامح والطباع، رغم أصوات ضحكات الأطفال التي تملأ المكان إلا أنه كان دائم العبوس يأبى حتى الابتسام، تناوله الخمسة وعشرين قرشًا فيثبّت أمامك أحد الصناديق، ويطرد من فيها ويدعوك للركوب، لتقضي أمتع دقائق وأنت تصعد وتهبط داخل الصندوق المعدني الصدئ الذي لا ينفك عن الاهتزاز جيئةً وذهابًا، ترتفع فوق الشارع فترى العالم تحت أقدامك، الأشخاص يتضاءلون، العالم يتضاءل، تحلق وحدك فوق السحاب، ثم يدير عم "برغوتة" اللعبة، فينزل بك مرة أخرى إلى الأرض، تعاود الصعود والهبوط حتى يأتي من يعطيه خمسة وعشرين قرشًا، ليأخذ مكانك، تنزل من اللعبة حزينًا، ولكنك مُنْتَشٍ بلحظات من السعادة تفوق كل ما ستشعر به طوال حياتك القادمة.

لم يعد لعم "برغوتة" ومراجيحه وجود، فقط سيارات تراصت في ظلمة الليل الحالك، رحلت الشوارع التي تبعث الدفء في القلوب مهما انخفضت درجات الحرارة، رحلت القلوب الدافئة، وأصبحت الشوارع باردة كئيبة، والقلوب أكثر برودة.

انطلقت تجاه شارع "شبرا"، وكأنني أراه لأول مرة، أغلب المتاجر تحولت إلى بيع الوجبات السريعة، وكأن الناس أصبحوا لا يفعلون شيئًا سوى التهام الوجبات الجاهزة وحشو بطونهم بأطنان من الدهون، اختلطت روائح الطعام المشبع بالزيوت برائحة القمامة الملقاة في كل زاوية وأمام مدخل كل شارع.

لم تعد "شبرا" كما كانت، لم تعد "القاهرة" كلها كما كانت، يد سوداء أطبقت عليها فحولتها إلى كتلة من الغبار كريه الرائحة.

صادفت الأستاذ (عادل راغب)، معلمي في المرحلة الابتدائية وسبب تعرفي على (نور) التي أثرت بي كثيرًا، وغيرت من شخصيتي وحياتي، عرفته رغم شعره الذي تحول بالكامل إلى اللون الأبيض، ووجهه الذي هزل وخطته التجاعيد وملابسه البالية، ولكنه لم يعرفني، فناديته فتوقف ينظر في وجهي للحظات حتى تذكرني، سعد كثيرًا عندما علم أنني أنهيت دراستي الجامعية بتفوق، سألته عن (نور) فأخبرني بأنه لا يعرف عنها شيئًا منذ سنوات، لم يدم لقاؤنا سوى دقيقة واحدة، ولكنها كانت كافية لبعث القليل من السعادة في داخلي وسط هذا الجو الخانق.

(25)

مع بداية العام الجديد أخبرني (محمود) بأن هناك تعديلاً صدر في شهر ديسمبر خاص بقانون حقوق الأشخاص ذوي الإعاقة، وأن هذا التعديل قد دعم موقفنا في القضية بشكل كبير، وأن الحكم سيصدر قريبًا، وإن شاء الله سيكون في صالحنا.

في اليوم التالي تلقيت مكالمة هاتفية من رقم غريب، عرفني المتصل على نفسه بأنه أحد المستشارين القانونيين للجامعة، وطلب مقابلتي في مكتبه، أصر (محمود) على حضور هذه المقابلة قائلاً لي:

- واضح أنهم تيقنوا من ضعف موقفهم، ويريدون مساومتك، لا تتنازل عن حقك يا (رضا) مهما كان ما سيعرضونه عليك.

في اليوم التالي صحبني (محمود) بسيارته إلى الجامعة، كان يمتلك سيارة صغيرة يستخدمها في انتقالاته، كانت تذكرني بسيارة (نور)، وصلنا إلى مكتب الرجل، والذي قابلنا بابتسامة غير مريحة، يبدو أنه لم يتوقع أن يصحبني (محمود)، كان رجلاً وقورًا أشيب الشعر يجلس في غرفة أنيقة بمكتب عتيق، عرفنا على نفسه قائلاً:

- (عبد الواحد الجندي) مستشار قانوني للجامعة.

ثم عرفنا على رجل آخر كان يجلس أمام مكتبه قائلاً:

- الأستاذ (مصطفى أحمد شبانة) أحد المديرين بقطاع شؤون العاملين.

ثم باح بما يجول في خاطره ليؤكد شكوكي:

- ظننت أنك ستأتي بمفردك يا أستاذ (رضا).

فقلت له:

- هذا الأستاذ (محمود عبد الرحمن) المحامي الخاص بي.

- بالقطع أعرفه، ولكنني لم أتوقع قدومه.

فقال الرجل الآخر بتهكم:

- وهل لو تم تعيينك في الجامعة ستحضره معك كل يوم؟

أشار له (عبد الواحد) بأن يتوقف، ولكن (محمود) رد عليه قائلاً:

- أعتقد أن هذه الجلسة تحديدًا تتطلب حضوري، وسيادتك تعلم ذلك جيدًا.

فقال (عبد الواحد):

- أستاذ (مصطفى) يقصد أننا أردنا لـ(رضا) أن يتخذ قراره بنفسه، بدون مؤثرات خارجية.

فقال (محمود):

- أي قرار؟

فرد (عبد الواحد):

- سأدخل مباشرة في الموضوع، نحن نعرض عليك يا (رضا) أن يتم تعيينك كموظف بشؤون الطلبة، من ضمن نسبة الخمسة بالمائة من ذوي الاحتياجات الخاصة.

فقال (محمود) بشيء من الحدة:

- بعد أن أضعتم عليه ثلاث سنوات! كان من الممكن أن يحصل خلالهم على درجة الماجستير، ويصبح على أعتاب الدكتوراه.

فقال (مصطفى):

- أولاً سوف نعوضه عن كل هذه الفترة، سيتم تعيينه بتاريخ تخرجه، وسيحصل على مرتبه بأثر رجعي.

ثم نظر إلي وأكمل:

- مرتب ثلاث سنوات، مبلغ كبير ستتمكن معه من بداية حياتك، يمكنك إنشاء مشروع خاص بك، كما أنك لن تكون مطالبًا بالحضور كل يوم، بل ستجلس في منزلك، ويصل لك مرتبك كل شهر، دون أن تتكبد مشقة ركوب المواصلات والعمل لساعات طويلة.

فسأل (محمود):

- وهل هذا الإجراء يتسق مع القانون؟

فرد (عبد الواحد):

- فلتدع اتساقه مع القانون لنا، نحن سنسوي هذه المسألة.

فقال (محمود):

- بالقطع هذا العرض مقابل أن نتنازل عن القضية، أليس كذلك؟

فرد (عبد الواحد):

- أكيد ... على أية حال القضية ليست مضمونة، يمكنكم خسارتها، حتى وإن جاء الحكم في صالحكم، هناك درجات أخرى للتقاضي، هناك استئناف ثم نقض، بالقطع أنت تعرف الإجراءات جيدًا، كل هذا سيكون ضياعًا للوقت بلا طائل.

فقال (محمود):

- وبالتأكيد سيادتك أستاذنا وتعرف أن الاستئناف لا يوقف التنفيذ.

فرد (عبد الواحد) بحدة:

- وهل يستطيع العمل في مكان يلفظه، كما أن كفاءته ستكون دائمًا محل شك.

ثم مال إلى الأمام ونظر إلي بعمق قائلاً:

- نريدك يا (رضا) أن تتخذ قرارك بنفسك.

كانت أنظارهم جميعًا تتجه صوبي، كان علي أن أتخذ في عدة ثوان قرارًا سيؤثر على مستقبلي كاملاً، سيحول مسار حياتي تمامًا، شعرت بالارتباك، فلحقني (محمود) قائلاً:

- أعتقد أن من حقه الحصول على فرصة للتفكير في عرض كهذا.

فاعتدل (عبد الواحد) في جلسته وقال:

- نعم ... مفهوم ... مفهوم ... نمهله يومين للتفكير.

عاد ونظر إليّ، واستطرد:

- وأتمنى أن تتخذ قرارك بنفسك، دون أن يؤثر أحد عليك.

كانت هذه الكلمات تدل على انتهاء الحوار، فقمت و(محمود) لنغادر المكان، ولكنني توقفت، ثم التفتُّ إليهما قائلاً:

- سأقدم أنا لكم عرضًا ... فلتقوموا بإنهاء إجراءات تعييني كمعيد بالكلية نظير ألا أقوم برفع دعوى مطالبًا فيها بالتعويض عن الثلاث سنوات اللاتي أضعتموها علي.

بهت الرجلان من ردي، حتى إنني رأيت شبح ابتسامة على وجه (عبد الواحد) الذي قال:

- وهل ستطالب بمرتبك بأثر رجعي؟ هذا لا يتسق مع القانون.

فقال (محمود) بابتسامة:

- فلتدع اتساقه مع القانون لنا، نحن سنعرف كيف نسوي هذه المسألة.

ضحك (عبد الواحد) ضحكة قصيرة، ثم قال لي:

- فلتفكر في عرضنا يا (رضا)، وتبلغني بقرارك بنفسك.

فقلت قبل أن نغادر مكتب الرجل:

- لقد اتخذت قراري بالفعل ... عرضكم مرفوض.

انصرفنا وقبل أن ينطلق (محمود) بالسيارة نظر إليّ بابتسامة قائلاً:

- خشيت أن توافق.

فقلت:

- وأتنازل عن حلمي؟!

فقال وهو ينطلق بالسيارة:

- لقد تعلمت المساومة، واكتسبت مهارة التفاوض ... مرحبًا بك في سوق العمل يا (رضا).

***

في شهر مارس صدر الحكم، وجدت مكالمة من (محمود) يخطرني بأن المحكمة قد حكمت بأحقيتي بالتعيين بوظيفة معيد بالكلية، وأنه في انتظار كتابة الحكم ليتم إخطار إدارة الجامعة بتنفيذه، كان هذا اليوم هو أسعد أيام حياتي.

كما توقعت، لم يكن الأمر سهلاً، وجدنا بعض التعنت من إدارة الجامعة إلا أن (محمود) كان على وعده معي، فقد بذل مجهودًا كبيرًا حتى حصلت على قرار التعيين، وتم إدراج اسمي في سجلات الكلية، وبدأت الترتيبات للحاق بالعام الدراسي الجديد.

(26)

اليوم سألقي أول محاضرة، تم وضعها آخر اليوم في الساعة الثالثة عصرًا، عندما يكون أغلب الطلبة قد أنهكوا طوال اليوم، حيث تبدأ محاضراتهم من الثامنة صباحًا، دخلت القاعة الصغيرة، كان من المفترض أن يتواجد بها ثمانون طالبًا هم قوام مجموعتي من طلبة الصف الأول، إلا أنني وجدت العدد يقل عن الأربعين، بالتأكيد معظمهم قد حضر من أجل تجنب تجاوز نسبة الغياب التي تمنعهم من دخول الامتحان إذا تجاوزوها، بمجرد دخولي القاعة ساد الصمت بين الطلبة، أخذوا يرمقونني بنظرات متشككة، لا تخلو بالطبع من الاندهاش وابتسامات السخرية، ثم عادت الهمهمات بينهم، انتشرت أجواء التوتر، كانوا يحدقون في وأحدق فيهم، لا أنكر أنني كنت متوترًا، ولكنني حاولت أن أتماسك قدر الإمكان، أغمضت عيني للحظات واستدعيت أحلام يقظتي، ها أنا الآن أقف على خشبة المسرح، أؤدي دور البطولة في إحدى المسرحيات والمشاهدون يجلسون في القاعة صامتين، حتى أنتهي فتنفجر القاعة بالتصفيق، فتحت عيني واستجمعت شجاعتي، لم أنتظر حتى ينتهوا من همهماتهم، وبدأت بالكلام:

- منذ سنوات ... ليست بالكثيرة ... كنت أنا مكانكم هنا ... في العام الأول لي ... أتذكر أن الطلبة كانوا ينظرون إلي باندهاش وخوف ... وأحيانًا بسخرية ... كيف لهذا الشخص ... المتخلف أن

يجلس بيننا في مدرج الجامعة؟ كيف وصل إلى هنا؟ كانوا يتجنبونني ... وأنا بالقطع أعذرهم ... فشكلي مختلف، أو كما يقولون متخلف ... كما أن ملابسي كانت تبدو بالية، ولا أغيرها كثيرًا ... بل لم أغيرها أبدًا ... فقد حضرت السنوات الأربع في الكلية بنفس الملابس، فأنا لم أكن أملك غيرها ... حتى إنني كنت أنوي الحضور بها اليوم ... إلا أن إدارة الجامعة قد أصرت على حضوري بحلة كاملة ورابطة عنق من أجل الحفاظ على شكل المدرسين بالكلية ... خاصة مع بداية العام الدراسي ... ولكن من لا أستطيع أن أعذره هو بعض أساتذتي ... الذين كانوا يتجاهلونني ... حتى إنهم أحيانًا كانوا لا يجيبون على أسئلتي ... كانوا يعتقدون أنه لا جدوى في الرد على أسئلة شخص كهذا ... فلن تفيده على أية حال؛ لأنه ليس مؤهلاً للنجاح ... كانوا يرون أنهم يوفرون مجهودهم لمن يستحق ... ولكنني لم أيأس، ولم أحبط ... بل كنت أجتهد على قدر ما أستطيع، حتى صدرت نتيجة النصف الأول من العام، وكنت الأول على دفعتي ... فبدأ الأساتذة ينتبهون إلى أنني لست فراغًا يمكن تجنبه دون التأثير على المعادلة ... وها أنا بينكم الآن ... بعد أربع سنوات من الاجتهاد ... حتى لا أفقد مكاني ... وثلاث سنوات من الانتظار والسعي ... حتى أحصل على ما أستحق ... أعلم أن بعضًا منكم متوتر ... ولا أخفي عليكم سرًا ... أنا أيضًا ينتابني بعض التوتر والخوف ... أعلم أن بعضًا منكم يحضر فقط تجنبًا لتجاوزه عدد مرات الغياب ... ولكنني أعدكم بأنني منذ المحاضرة القادمة لن ألتفت إلى الحضور والغياب ... سأسجل حضور المجموعة بالكامل ... من أراد منكم عدم الحضور فليفعل ...

كما أعدكم بأنني لن أدخر جهدًا في شرح المنهج لكم على أكمل وجه، ولن أتجاهل أسئلتكم وسأتحاور معكم، فقد تذوقت مرارة التجاهل ... وأعلم ما تخلفه في النفس من إحباط، الآن نبدأ محاضرتنا ... بسم الله الرحمن الرحيم.

بدأت محاضرتي الأولى والتي كانت عن نصوص من الأدب الجاهلي، وكما اعتدت أن أشرح لزملائي أثناء الدراسة، أخذت أشرح للطلبة بنفس الطريقة، الأداء المسرحي الحركي مع التفاعل معهم قدر الإمكان، بل ومحاولة إضحاكهم في بعض الأحيان، فأنا مقتنع تمامًا بأن التعليم ما هو إلا تفاعل بين الطالب والمعلم، فالمعلومة إذا تم إلقاؤها في وجه الطالب صلدة مجردة، فسترتد من عقله دون أن تستقر بداخله، مثلها مثل الصمت، أما إذا تم تغليفها ببعض من الإثارة أو التفاعل أو حتى الابتسام، فسوف تقترن بموقف يصعب معه النسيان، وبهذا تستقر داخل العقول.

بعد حوالي عشر دقائق من المحاضرة وجدت باب القاعة يفتح، فإذا به الدكتور رئيس القسم، تقدم وجلس في آخر القاعة وأشار لي بالاستمرار، يبدو أنه أراد أن يشاهدني وأنا أقوم بالشرح للطلبة، لا أعرف إن كان هذا إجراءً عاديًا يحدث مع كل المعيدين الجدد كنوع من التقييم، أم أنه عدم ثقة في أنا شخصيًا، على كل حال، لم أتوقف كثيرًا عند هذا الأمر، بل واصلت تقديم محاضرتي وبنفس أسلوبي، لم أقم بتغييره.

بعد انتهاء المحاضرة توجه إليّ رئيس القسم، ولأول مرة منذ قابلته أراه يبتسم في وجهي قائلاً:

- أحسنت يا أستاذ (رضا) ... أحسنت.

في الأسبوع التالي، وجدت أن عدد الطلبة في القاعة قد ازداد قليلاً، أسبوعان آخران كانت القاعة قد امتلأت عن آخرها، بل إن هناك بعض الطلبة من مجموعات أخرى من المفترض أنها تابعة لمعيدين آخرين قد جاءت لسماع محاضراتي، وعلى قدر ما أسعدني ذلك إلا أنه أغضب زملائي المعيدين، وتقدموا بشكوى لرئيس القسم الذي نبه على الطلبة أن يحضر كل منهم في مجموعته وإلا سيسجل غيابًا، فكان الطلبة يذهبون إلى أقسامهم لتسجيل الحضور، ثم يأتون إلى محاضرتي، أصبحت القاعة تكتظ بالطلبة، يملأون المقاعد ويفترشون الأرض والطرقات، حتى إن بعضهم كان يقف على الباب لا يستطيع الدخول، ليظهر رئيس القسم، وقف بينهم وأمسك بقائمة الأسماء الخاصة بمجموعتي قائلاً:

- هذه المحاضرة خاصة بالمجموعة الثانية، وهذه قائمة بأسمائهم، أي طالب متواجد في القاعة واسمه غير مدرج بهذه القائمة فليعتبر نفسه ساقطًا في هذه المادة، وسأتأكد من الأسماء بنفسي، ولا أريد تكرار هذا الأمر مرة أخرى.

بدأ عدد من الطلبة في الانصراف، بعضهم بدا على وجهه الغضب والتذمر وبعضهم الإحباط، بينما تهللت أسارير طلبة آخرين، وقد استمروا في الجلوس بثقة وأريحية بعد أن خَفَتْ حدة الزحام داخل

القاعة، بدأ رئيس القسم في تنفيذ وعيده، حيث اختار مجموعة من الطلبة أخذ يطالع بطاقات هوياتهم الجامعية، ويتأكد من وجود أسمائهم بالقائمة، بعد أن انتهى اتخذ مكانه في آخر القاعة، وأشار لي بأن أبدأ محاضرتي، وجلس يستمع لها حتى نهايتها.

مع اقتراب نهاية الفصل الأول من العام الدراسي تبقت لي محاضرة واحدة من المفترض أن تشتمل على مراجعة نهائية وشاملة للمنهج، وكنت أريد مساعدة الطلبة قدر المستطاع على اجتياز الامتحان، بحثت في الدفاتر المكدسة بجوار فراشي حتى وجدتها، ملخص كامل كانت (هدى) قد خطته بيدها لتساعدني في المراجعة ليلة الامتحان، حملته بين يدي وتوجهت إلى الجامعة، وفي موعد المحاضرة دخلت القاعة الصغيرة فوجدتها خالية تمامًا، لا يوجد بها طالب واحد، هل حضرت مبكرًا؟ نظرت إلى ساعتي، فإذا بها تشير إلى الثالثة عصرًا، هل قاموا بإلغاء المحاضرة؟ كيف وهي أهم محاضرة في العام؟ لماذا تأخر الطلبة إذن؟ جلست في القاعة لا أعرف ماذا أفعل، فجأة وجدت عم (محمد) فراش الكلية يدخل القاعة قائلاً:

- يا أستاذ (رضا)، لقد تم نقل محاضرتك إلى المدرج الكبير، ألم يخطرك أحد؟

هززت رأسي نفيًا، ثم حملت أوراقي، وذهبت إلى القاعة الكبيرة، وجدت الطلبة جميعًا هناك في انتظاري، القسم بالكامل، مئات الطلبة يتراصون في المدرج بعد أن سمح لهم رئيس القسم بحضور المراجعة النهائية ضمن مجموعتي، عاد بعض التوتر يزحف داخلي، ولكنني أغمضت عيني، سحبت نفسًا عميقًا، ثم فتحتهما وانطلقت.

(27)

مع بداية الفصل الدراسي الثاني، كنت مسؤولاً عن تدريس مادة المسرح لطلبة الصف الرابع، أعاد هذا شغفي وحبي للمسرح، في أحد الأيام توجهت صوب القاعة التي يتدرب بها فريق التمثيل، بالقطع كانت مجموعة أخرى غير التي شاهدتها وأنا طالب، كذلك المخرج كان شخصًا آخر، هذه المرة لم يستطيعوا أن يُخرجوني من القاعة، فأنا معيد ولست طالبًا، جلست أشاهد بروفات العرض الذي سيقدمونه في مهرجان مسرح الجامعة، كانت مسرحية بعنوان "إعدام وردة"، للكاتب "أحمد إبراهيم عبد الهادي" كاتب معاصر، لم أسمع عنه من قبل، كانت تحكي عن فتاة جامعية تسمى (وردة) تم القبض على والدها ووالدتها بالخطأ لمرورهما بالصدفة بجوار إحدى المظاهرات، فتضطر للعمل حتى تقوم بالإنفاق على نفسها وتستكمل دراستها الجامعية، فتعمل سكرتيرة لأحد مكاتب السياحة، ولكنها لا تسلم من تحرش صاحب المكتب بها، فتتركه وتعمل في عيادة أسنان، ولكنها أيضًا لا تسلم من تحرش الطبيب، فتصير عاملة في أحد المصانع، ولكنها تتعرض لمضايقات من ابن صاحب المصنع، هذا الشاب الغني الجاهل متصنع الرقي، لينتهي بها الأمر في السجن بعد أن تم القبض عليها في إحدى المظاهرات، وتجد نفسها متهمة بالعمالة والإرهاب، تهم قد تودي بها إلى حبل المشنقة.

عرض درامي كئيب، ولكنني أعجبت به كثيرًا، تذكرت قول (هدى) لي ذات مرة: "للظلم ألف وجه".

طلبت من المخرج أن يسمح لي بتمثيل أي دور، ولكنه اعتذر بأدب وقال لي أن هذه العروض خاصة بالطلبة وغير مسموح اشتراك الأساتذة بها.

حتى وإن كان مسموحًا، فأنا أوقن بأن أي عرض مسرحي لا يمكن أن يضم شخصًا مثلي، إلا أن يكون عرضًا خيريًا، غير جادٍّ، يدعو إلى التعاطف ليس أكثر.

أخذت أبحث عن أي مسرحية بها شخصية تحمل متلازمة "داون"، فلم أجد، وجدت في بعض المسرحيات شخصية عبيط القرية الذي يضفي جوًا من الضحك والسخرية لكسر جمود النص أو سوداويته، ولكنني لم أجد شخصية جادة أو حقيقية بخصائص "داون".

في أحد أيام شهر فبراير عدت من صلاة الجمعة، كانت الشمس تتوارى خلف الغيوم، إلا أنها تلقي ببعض الأشعة الدافئة على أرضية السطح، وضعت الحصيرة أمام باب الغرفة، وتمددت فوقها أراقب الصراع الدائر بين خيوط الضوء الذي يحاول شق السحب الكثيفة فيرسم - على استحياء - بينها لوحات، وكأنها سهام تخترق الظلام الملتصق بجدران المنازل، أريد الكلام، أريد البوح بما في داخلي، ولكن لساني لا يسعفني، دائمًا لا ينطق بحقيقة ما يجول في خاطري، لا يقدر على التعبير بشكل صحيح، لا يستطيع أن يفتح كُوَّة ليقفز منها هذه

المهور الجامحة التي تسعى للانطلاق خارج هذا الإطار الذي وضعته لي جيناتي، هذا الكروموسوم الإضافي، الكروموسوم السابع والأربعون.

توجهت نحو الغرفة، وأحضرت قلمًا ودفترًا، إذا كان لساني عاجزًا، فالقلم موجود، والعقل بلا حدود، سأكتب أنا مسرحية عن نفسي، عن حياتي، فقد كانت مليئة بما يستحق أن يروى.

بدأت أضع الخطوط العريضة، مسرحية من أربعة فصول، فصلها الأول في غرفة تقبع تحت درجات السلم، بها نافذة واحدة تطل على أنابيب المياه والصرف، فراش قديم بمرتبة مهترئة، حصيرة بالية وطبلية فقدت جزءًا من استدارتها، خزانة قصيرة، ضفتاها مكسورتان وطلاؤها مطموس وخشبها متعرج بفعل الرطوبة، فوقها موقد بشعلة واحدة.

الفصل الثاني، لا حاجة لتغيير أي شيء من الديكور، فقط تتم إزالة درجات السلم من المشهد، ويتم اقتطاع جزء من المسرح ليبرز الشارع، حيث دفع والدي حياته ثمنًا لشهامته.

المشهد الثالث، لا حاجة لنا أيضًا بتغيير الديكور، نفس الفراش القديم، والحصيرة البالية والطبلية، فقط يتم استبدال الشارع بالسطوح، نفس المشاهد تتكرر، ولكن الأحداث تختلف.

المشهد الرابع سيكون أقصرهم، سيكون هو المسرح نفسه، يجب أن أقف على المسرح في مشهد النهاية.

بدأت بكتابة اسم المسرحية "جراح الملائكة".

كتبت أجزاء كثيرة من المسرحية، ثم حملت قلمي ودفتري وتوجهت لزيارة (هدى)، لأطلب مساعدتها في بعض المشاهد، هناك أحداث غائبة عني، أحداث تومض وتخفت داخل عقلي، ولا أستطيع تذكر تفاصيلها، إما أنني كنت صغيرًا، أو أنني لم أكن حاضرًا، وهناك أيضًا بعض الأشياء التي تعرفها (هدى) ولا أعرفها عن أمي وأبي، تفاصيل كانوا يختصونها بها.

لم تكتفِ (هدى) بسرد تفاصيل الأحداث، بل ساعدتني كثيرًا في الكتابة، رغم انشغالها بالركض خلف (وعد) التي اكتشفت أنها تستطيع المشي، فأخذت تجوب المنزل وتعبث بمحتوياته بلا هوادة، تكررت زياراتي لـ(هدى)، جلسنا بالساعات نخط حوار المسرحية، تذكرت عندما كنت طالبًا، وكنا نجلس طوال الليل ننقل الكتب في دفاترنا كلمة كلمة، مع منتصف شهر مارس كانت المسرحية قد اكتملت، وكتبت كلمة "تمت"، شعرت أنها أسعد كلمة يخطها الكاتب عندما ينتهي من عمل يرضى عنه تمامًا.

واجهت المشكلة الأكبر الآن، كيف سأقدم المسرحية، ومن يرضى أن ينتج عملاً لمؤلف جديد وبمتلازمة "داون"، حتى جاء يوم 21 مارس، عندما تلقيت مكالمة من الأستاذ (مصطفى شبانة) المدير بأحد أقسام قطاع شؤون العاملين بالجامعة يخطرني فيها بأن هناك وفدًا من المجلس القومي للأشخاص ذوي الإعاقة يريد مقابلتي، ومعهم بعض من الصحفيين بعدة مواقع إخبارية يريدون عمل

حديث صحفي معي بصفتي أول معيد من متلازمة "داون"، وذلك تزامنًا مع اليوم العالمي لمتلازمة "داون"، كانت أول مرة أعرف أن هناك ما يسمى يومًا عالميًا لمتلازمة "داون".

حضرت اللقاء على أية حال، كان لطيفًا مجاملاً، تملؤه الابتسامات المصطنعة وكلمات الثناء والتشجيع المبالغ فيها، ما استرعى انتباهي هو كلام الأستاذ (مصطفى) والذي كان يتحدث عن دعمهم وتشجيعهم لي منذ اليوم الأول لي كطالب بالجامعة من قبل حتى أن يتم تعييني كمعيد، وعن حفاوة استقبالهم لي وسعادتهم بقرار تعييني، لم أشأ أن أفسد عليه لحظات التباهي والمفاخرة المصطنعة، كما لم أشأ أن أكذب في سرد الأحداث، فاكتفيت بردود مقتضبة على أسئلتهم، والتقاط بعض الصور معهم، بعد اللقاء توجهت إلى إحدى السيدات من الوفد، وتحدثت معها عن كتابتي لمسرحية تحمل سيرتي الذاتية، وإمكانية تنفيذها عن طريق مجلسهم، فأجابتني بأن النشاطات الفنية ليست من اختصاصها، ثم أعطت لي رقم هاتف محمول قائلة:

- هناك مسؤولة عن النشاطات الفنية، الدكتورة (نور شوقي)، هذا رقم هاتفها، يمكنك التحدث معها في هذا الأمر.

خفق قلبي بقوة عندما سمعت اسم (نور)، لم أرها منذ أربعة عشر عامًا، إلا أنني ما زلت أذكر كل لقاءاتنا، ما زلت أحفظ كل حواراتنا سويًا، ما زلت أنفذ كل تعليماتها لي، وأطبق ما علمتني إياه.

التقطت رقم الهاتف من السيدة وقلبي يقفز فرحًا، ولكنني لم أستطع أن أطلب الرقم، خفت ألا تتذكرني، أو الأصعب من ذلك أن ألجأ إليها فتخذلني، فلتظل صورتها في قلبي كما هي، ويظل رقم هاتفها في جيبي.

عندما حكيت لـ(هدى) طلبت مني رقم هاتفها، رفضت في بادئ الأمر، وشرحت لها مخاوفي، ولكنها قالت أنها ستهاتفها للسؤال فقط عن أحوالها، ولن تتطرق إلى موضوع المسرحية، فأعطيتها الرقم.

بعد ثلاثة أيام رن هاتفي برقم غير مسجل بقائمة الهاتف، أصبحت أتوجس دائمًا من أي رقم غريب، فرددت بقلق، فإذا بصوت أعرفه جيدًا يقول:

- مساء الخير.

إنه صوت (نور)، خفق قلبي بقوة، واختنق صوتي فلم أستطع الرد، فقالت:

- (رضا)؟ هذا أنت؟

فأجبت بصعوبة:

- نعم.

فقالت:

- كيف حالك ... لقد افتقدتك كثيرًا.

- وأنا أيضًا.

شعرت بعيني تغرقهما الدموع، حتى فاضت إحداهما على وجنتي، بكيت كثيرًا من الحزن، ولكنني لأول مرة أختبر دموع الفرح، هل هي فعلاً دموع الفرح؟ أم الحنين؟ الحنين إلى الماضي، أو حتى جزء منه.

أكملت حديثها قائلة:

- منذ حوالي الشهرين، وأنا أعرف أنك قد عينت معيدًا بالكلية، كنت أريد تهنئتك، ولكنني لا أعرف رقم هاتفك، فذهبت إلى منزلكم القديم، فوجدته قد تحول إلى مخزن لقطع الغيار، سألت جيرانكم وبعض المتاجر في الشارع عن مكان انتقالكم، ولكن لم يجبني أحد، لا أحد يعرف إلى أين رحلتم، كنت حزينة جدًا حتى جاءتني مكالمة أختك (هدى)، لا تعرف مدى سعادتي بها، وعندما أخبرتني عن مسرحيتك "جراح الملائكة"، طلبت منها أن ترسل لي نصها، وبالفعل أرسلتها، وقرأتها بالكامل في يوم واحد، أنت رائع يا (رضا) ... رائع.

- كنت أخاف ألا تتذكريني إذا هاتفتك.

- ماذا تقول؟ كيف أنساك، وقد كنت أحد أسباب وصولي إلى مكاني هذا.

- وأنت السبب في وصولي إلى مكاني هذا .... فقط أردت أن أكون مثلك.

جاءني صوتها عبر الهاتف سعيدًا، وهي تقول:

- لقد عرضت مسرحيتك على أحد قيادات معهد الفنون المسرحية، وقد تحمس كثيرًا للفكرة، وهو يريد مقابلتك ومناقشتك فيها، وسيقوم بتنفيذها بالتعاون مع طلبة المعهد، ستكون البروفات والتحضيرات بأكاديمية الفنون بالهرم، والعرض بقاعة "سيد درويش".

(28)

اليوم: الخميس 21 يوليو 2022.

المكان: قاعة "سيد درويش".

العرض الأول لمسرحية "جراح الملائكة"، تأليف وتمثيل (رضا صالح).

المشهد الأخير.

(رضا) يقف وحيدًا في منتصف خشبة المسرح، بلا ديكورات، فقط خلفية سوداء، القاعة مظلمة تمامًا إلا من ضوء أبيض مسلط عليه.

(رضا):

"في السابق لم يرنا أحد، أما الآن، فالبعض يرانا، يربتون على أكتافنا أمام الشاشات والكاميرات، ثم يجثمون على ظهورنا خلفها، قالت لي معلمتي (نور) ذات يوم أن الشر موجود بهذا العالم حتى نعرف قيمة الخير، ولكن الآن ... الآن تضاءلت كل معاني الخير عندما توارى خوفًا من الأشرار الذين غيروا هويته، أصبح جميع الأخيار بلهاء ساذجين، أصبح جميع الأخيار حاملي كروموسوم إضافي، ما زال النور موجودًا، ولكنه خافتٌ، أصابنا العمى، فلم نعد نراه.

هناك خطأ ما ... شيءٌ ما حدث فصبغ الناس باللون الأسود، هل هذا الخطأ فينا؟ أم في الأيام التي نعيشها؟ أم في نمط الحياة الذي تم فرضه علينا عمدًا، ولم نكن متأهبين له؟

شواذ للقاعدة يؤكد وجودها، أما انتشار شاذها ليطغى على ثابتها ويقلب حقيقتها، فيصبح الأصل شاذًا، والشاذ أصلاً، فأصبح الشر يرتدي عباءة الخير، أصبح الشر عاديًا ومقبولاً، بل ومطلوبًا أيضًا، غياب الأخلاق صار من الرجولة، الاعتداء على الآخرين صار نصرًا يستحق التباهي والمفاخرة، الخوض في الأعراض صار مستباحًا، تحول الاحتيال إلى مهارة، والكذب بات من الذكاء والحذق، النفاق سار من الفطنة والكياسة، ارتفعت رايات النخاسة، ونحرت أعناق الحياء، اقترن الفقر باللامبالاة، هربًا من اليأس تولَّد الغضب، الجميع يرى فوهة البركان، ويتجه إليها طوعًا ليلقي بما تبقى من آدميته في نيرانه غير مكترث بأنها ستلتهمه حيًا وميتًا، غير مبال بروحه التي ألقت في جحيم الأرض، وستهوي في قاع جهنم.

أصبح الحب ضعفًا، والمشاعر ذنبًا يستوجب الإخفاء، أصبح الكرم سفهًا يستوجب الحجر، واللطف عيبًا يجب أن يدفن، فقدنا إنسانيتنا، وفقدنا معها أسباب تميزنا، طمست الهوية فصرنا كالمسوخ، فقدنا الانتماء فصرنا مستباحين، أغلقنا عمدًا كل الطرق المستقيمة، ومهدنا الطرق الملتوية ليمر منها الفاسدون بيسر.

صرنا وطنًا بلا شعب، شعبًا بلا قلب، بصدورنا آلات لا تعرف سوى الانكماش، تضخ في العروق سمًا زعافًا يذهب العقول، يستبدلها بجبال من الجنون والشبق.

الضمير ... الأخلاق ... الأدب ... الصدق ... الحياء ... الكرم ...

كل هذه الكلمات صارت بلا معنى ... أساطير نتشدق بها، ولا نستطيع بلوغها، كطائر الرخ والعنقاء، حكايات نتلوها على أطفالنا، ونعلم أنهم لن يروها أبدًا إلا في أحلامهم.

قبل أن يأتي زماننا ... رحل

قبل أن ينصب فوقنا خيمة الأمل

جثا بين براثن القرد الذي تحول إلى أسد

بمساعدة الشرفاء ... وأصابع الندماء

الاسم جميلة ... والأصل عنقاء

ونحن لا نملك سوى الآلام

ورسم الأحلام

والتحدث بالشعارات ... وادعاء الثورات

ثم نعود إلى ارتكاب الآثام

ونوثق أرواحنا بالأوهام

حتى تمضي الأيام

نتكلم فنضحك كالبلهاء

ثم نتذكر فنبكي جلَّ بكاء

نحتضن الألم ... ولكننا لا نملك الندم

على أشياء بأيدينا فعلناها ... ومكرهين قبلناها

اختلفت الأشكال والطباع، تغيرت النفوس، وتغيرت معها أنماط الحياة، تغير دوران الأرض، وشروق الشمس وكسوف القمر، حتى نسيم الربيع أصبح خانقًا.

لم يعد الهواء صالحًا للتنفس، ولن يعود حتى تعود نفوسنا لصفائها، وأخلاقنا لفطرتها".

انطفأ الضوء المسلط على (رضا)، لحظات من الصمت المطبق.

ثم انفجرت القاعة بالتصفيق.

***

هذه المرة ليست حلمًا، ليست خيالًا، أنا أقف بالفعل على خشبة المسرح، يجلس أمامي جمع من المتفرجين، بينهم (هدى) و(محمود) و(نور)، وبعض من أساتذتي بالجامعة وزملائي وكذلك بعض الطلبة، وكثيرون لا أعرفهم، جميعهم يتابعون العرض.

انتهى الجزء الأخير، وقفت لتحية المتفرجين، وقفوا جميعًا يصفقون لي ولباقي الممثلين، لا أعرف إن كان تصفيقهم هذا حقيقيًا؛ بسبب إعجابهم بالعرض والمسرحية، أم يفعلون ذلك على سبيل

المجاملة لي، ولكنني لا أشغل بالي، لا أكترث للسبب، كل ما يهمني أنهم يصفقون.

رأيت والدي يقف بينهم، يرتدي حلة بيضاء أنيقة ورابطة عنق، وبجواره والدتي وكأنها في شبابها، وجهها الجميل يضيء المكان حولها، ترتدي جلبابًا ناصع البياض، وكأنها عائدة لتوها من الحج، لم يكونوا وحدهم، رأيت وجوهًا كثيرة اشتقت لها، عم (يوسف) صاحب عربة الفول، عم (عصام) صديق والدي، الحاج (رأفت)، عم (عوض) عم (حامد)، الأستاذ (عادل)، السيدة (سهير)، (تامر التورماي)، (عبده النعامة) وجميع شباب مباريات كرة القدم بشارع "مراد"، حتى صديقي (حمزة) الذي هاتفته قبل العرض ودعوته للحضور، إلا أنه رفض.

كل هؤلاء، لم يكن أي منهم موجودًا بالفعل، ولكنهم جميعًا حاضرون.

فجأة بدأت صيحات الناس وتصفيقهم يبتعد، بدأت إضاءة المسرح في الخفوت، أظلمت الدنيا من حولي.

لم أعد أشعر بشيء.

أنا أحلق في السماء، أصعد درجات تكونت من السحاب وقطرات الماء حتى وصلت إلى الجنة، النور في كل مكان ...

أبي وأمي قادمان نحوي من مكان لا أتبين ما هو، فقط ملامحهما التي تضيء حولي.

- مرحبًا يا أبي ... مرحبًا يا أمي ... هل آن أوان الرحيل؟

لم يفتح أبي فمه، ولكنني سمعت صوته:

- بل ... آن أوان العودة.

- لم العودة؟

- لم تنهِ ما بدأت.

- سأمت من هذه الحياة، أريد الرحيل.

- لكل أجل كتاب.

- وأجلي؟

- بيد الله.

- ألا يريدني؟ أنا أريد أن أذهب معكم.

سمعت صوت أمي يقول:

- يجب أن تعود، لتنهي ما بدأت، احمل مشعلك، وأضئ الطريق لهم.

- أطفأوا المشعل بإرادتهم ... لا يريدون النور ... يريدون أن يظلوا في الظلام ...

- ولكنك يجب أن تعود ... عد يا (رضا).

رحل أبي وأمي، وعاد الظلام مرة أخرى ...

فتحت عيني، لأجد (هدى) بجواري، وأنا أرقد على الفراش في غرفة بإحدى المستشفيات.

لم ينته الأمر بعد ...

أمسكت (هدى) يدي، وقالت:

- كدت أموت من الخوف عليك، هل كنت تنوي أن تتركني وحدي.

فقلت لها والكلمات تخرج بصعوبة من فمي:

- أنت من تركتني أولاً.

فقالت:

- لن أتركك بعد الآن ... أعدك.

ثم أشارت إلى ملف كبير به أوراق كثيرة بجوار الفراش، وقالت:

- انظر ... إنه سيناريو لأحد الأعمال السينمائية، لقد حضر العرض المسرحي أحد المخرجين الكبار وهو بصدد تنفيذ فيلم سينمائي يحتوي بطلاً من متلازمة "داون"، وقد أعجب بأدائك جدًا، وقد قابلني اليوم، وأعطاني هذا السيناريو، وطلب مني أن تؤدي أنت دور البطولة.

فقلت والكلمات تخرج من فمي بصعوبة بالغة:

- هل من حقنا أن نحلم الآن؟

فظهرت بادرة ابتسام على وجهها، وقالت:

- قليل من الأحلام لن يقتلنا.

- ما زلت أخاف.

- وأنا كذلك ... كنت وما زلت أخاف ... ولكننا سنحاول ... ستحاول يا (رضا) ... وتحاول ... وتحاول ... حتى تصبح بطلاً يعرفك العالم أجمع، لن تكون خلف الكواليس من الآن، آن أوان الظهور، آن أوان التحدث بلا خجل، صوتك يجب أن يسمعه كل إنسان، لسنا ملائكة، لسنا شياطين، جميعنا بشر، جميعنا سواء.

ابتسمت بصعوبة قائلاً:

- بطلٌ بكروموسوم إضافي!!

فقالت:

- نعم يا (رضا) ... بطلٌ بكروموسوم إضافي ... بطلٌ من "داون"

تمت